المكتبة السعودية

سلسلة تصدر عن جمعية الثقافة والفنون وتتناول موضوعات ثقافية متنوعة

٢١

رحلتي مع العقيلات



ابراهيم المسلم

رحلتي مع العقيلات

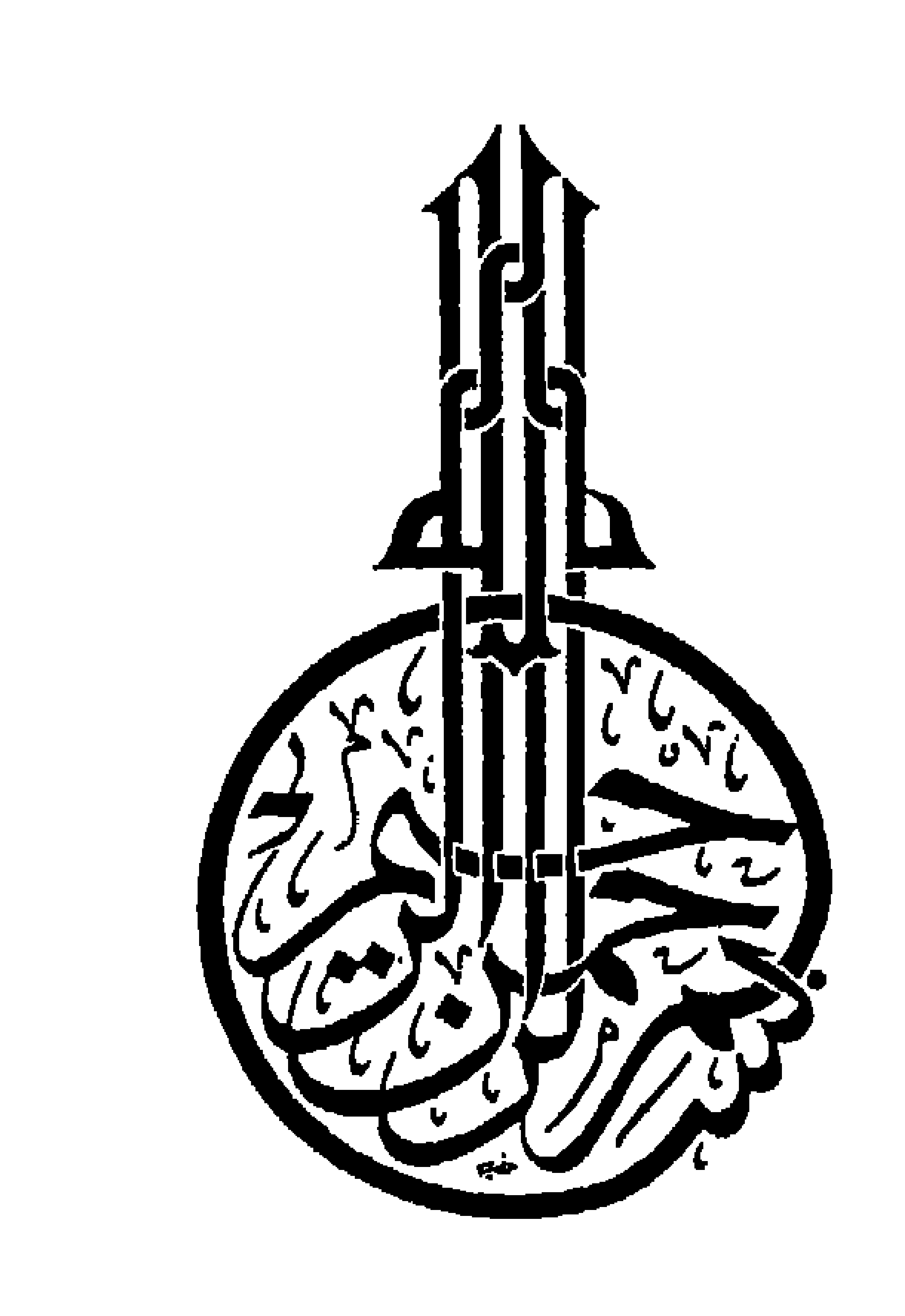
تأليف

ابراهيم المسلم

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

صدر عن الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون



المحتويات

الموضوع	الصفحة

الإهـــداء

إلى الذي خرج من الجامعة بعد سنوات من الصبر والكفاح ، خرج إلى الحياة حاملاً سلاحاً من المعرفة والتحصيل يواجه بها مستقبله .

وليست الشهادة التي يحملها هي المفتاح السحري فإن دروب الحياة صعبة وتحتاج إلى صبر وأناة، ووصيتي إليه أن يكون مواطناً صالحاً يجنّد نفسه في خدمة دينه ووطنه حنواً على الصغير رحيماً بالكبير .

إلى إبني أهدي هذا الكتاب ..

ابراهيم المسلم

مقدّمة

لم أكن أنوي ـ حين فرغت من تأليف كتاب عن العقيلات : رحلاتهم وتنقلاتهم أدلاء على قوافل التجارة متعهدين لنقل الحجاج تجاراً للإبل والخيول أن أعيد الكرة في كتابة مثل هذه السيرة التي استغرقت مني جهداً كبيراً، في البحث عن المادة لأكثر من خمس سنوات.

بيد اني ـ وبعد أن فرغت من كتاب العقيلات ـ ألح على الكثير من الأصدقاء خاصة أبناء العقيلات بأن أكتب رحلتي معهم باعتبارها حدثاً يصور الواقع تفاصيل دقيقة وحية بصفتي أحد أبناء العقيلات الذي كان له حظ مرافقة قوافلهم في آخر رحلاتهم.

عاصرت الكثير من شيبهم وشبابهم، عرفت عاداتهم وتقاليدهم في مجالسهم وسفراتهم، في بيعهم وشرائهم، وعندما بدأت في الكتابة وقفت في حيرة، هل تكون الرحلة على نسق كتب الرحالة العرب، تسجيل الأحداث يوماً بيوم، وتسجيل أسماء المدن والقرى والموارد أو أتخذ لها أسلوبا يجمع بين القديم والحديث، فأذكر أسماء المدن والقرى والموارد، بداية من القصيم إلى الشام ومصر والعراق؟

ووقفت أمام أمرين : الأول : من الجائز أن تكون هذه المدن أو القرى، أو الموارد غير معروفة لهذا الجيل. الأمر الثاني قد تكون هذه المدن أو القرى أو الموارد لها أصول وجذور تاريخية لكنها مع مرور الزمن قد اكتسبت مسميات حديثة وأكون بذلك قد أضفت جديداً يستفيد منه القارىء الكريم.

وقد وجدت أنه من المناسب أن أجمع بين القديم والحديث مع فكرة بسيطة عن الأسس التاريخية وتفصيلات حديثة لهذه الأماكن.

وإن كان هذا الاختيار سيتطلب مني الجهد في البحث عن المصادر التاريخية لكن ما حيلتي أمام هذه المسئولية التي تفرضها أمانة البحث.

وهاأنذا وبعد جهد كبير أفرغ من هذه الرحلة التي أعادت إلي ذكريات الصَبـاء والشباب أقدمها مع رجائي إلى كل صاحب كلمة أن يتحمل ما كتبته.

وحسبي أنني ساهمت بقدر متواضع في هذه الرحلة التي تناولت فيها جانباً غير معروف عن حياة فئة من أبناء نجد كان لهم السبق في الانفتاح على عالمنا العربي الواسع.

وأملي أن تلقى قبولاً لدى القارىء الكريم

والله ولي التوفيق

إبراهيم المسلم

شعبان ١٤٠٤هـ

مقدمة الطبعة الثانية

حين كتبت هذه الرحلة لم أكن أعلم أنها ستحظى بهذا التقدير ظناً مني أن القاريء قد حرفته الأجهزة المرئية من تليفزيون وفيديو عن متابعة القراءات الأدبية.

لكنني حمدت الله حين وجدت كماً كبيراً من الرسائل تنهال على الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون تطلب المزيد من هذا النوع من الكتابة.

وقد أنبرى الأستاذ/محمود رداوي لهذا الكتاب شرحاً وتحليلاً في المجلة العربية وجريدة الجزيرة فله مني جزيل الشكر ثم كتاب علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر للجمعية الذي أشاد بهذا الكتاب وأبدى بعض الملاحظات التي حاولت تلافيها في هذه الطبعة.

ثم الأشادة التي تلقاها فرع الجمعية بالقصيم من :

عميد كلية الزراعة جامعة الملك سعود، مدير المدرسة الثانوية التجارية، مدير المعهد العلمي، مدير المعهد الصحي، مدير ادارة المطبوعات وزارة الأعلام، مدير ادارة كلية التربية للبنات، مدير عام البرق بالقصيم، مدير ادارة فرع جامعة الملك سعود القصيم، مدير عام التنمية الأجتماعية وزارة العمل والشئون الاجتماعية بالرياض، مدير عام الزراعة والمياة بالقصيم، رئيس بلدية الإحساء الشيخ حمد الصغير على صفحات جريدة الجزيرة.

ثم كتاب فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم السليم والمكالمات التليفونية والاجتماعات مع العديد من الكتاب ورجال الفكر والقلم.

هـذا الـتـشجيع حافزاً للكاتب على الأستمرار في البحث والتنقيب عن تاريخ الأباء والأجداد.

ولـعـلـي بإعادة طبع هذا الكتاب البي دعوة الكثيرين بعد أن حاولت تـلافي كثير من الأخطاء المطبعية وبعض الملاحظات التي أبديت وأرجو أن أكون قد وفقت.

وما توفيقي إلا بالله.

إبراهيم المسلم

الفصل الأول

نجـــد

يقول ياقوت[1] كل ما ارتفع عن تهامة فهو نجد، وقال الأصمعي: «سمعت الأعراب تقول إذا خلفت عجلزاً مصعداً فقد أنجدت وعجلز فوق القريتين، قال وما ارتفع عن بطن الرمة، والرمة وادي معلوم فهو نجد إلى ثنايا فرات عرق، وقيل نجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام. يقول أعرابي:

اكـرر طـرفـي نحـو نجـد فـإنـنـي
إلـيـه وان لم يـدرك الـطـرف أنـظـر

حـنـيـنـا إلـى أرض كـأن تـرابهـا
اذا مـطـرت عـود ومـسـك وعـنبر

بـلاد كـأن الاقـحـوان روضـه
ونـور الاقـاحـي وشـي بـرد محبر

أحـن إلـى أرض الحـجـاز وحـاجـتـي
خـيـام بـنـجـد دونها الـطـرف يقصر

ومـا نـظـري مـن نحـو نجـد بـنـافـعـي
أجـل لا ولـكـنـي إلـى ذاك أنـظـر

أفـي كـل يـوم نـظـرة ثم عـبـرة
لـعـيـنـك مجـرى مـائـهـا يـتـحـدر

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٥ ص ٢٦٣ ــ ٢٦٥.

متى يستريح القلب اما مجاور
بحرب واما نازح يتذكر

وقال آخر :

خليلي هل بالشام عين حزينة
فتبكي على نجد لعلى أعينها

وهل بائع نفساً بنفس أو الأسى
اليها فأجلاها بذاك حنينها

وقال آخر :

رأيت بروقا داعيات إلى الهوى
فبشّرت نفسي أن نجدا أشيمها

اذا ذكر الأوطان عندي ذكرته
وبشرت نفسي أن نجدا أقيمها

ألا حبذا نجد ومجرى هبوبه
اذا طاب من برد العشى نسيمها

وقل نوح بن جرير لخطفي :

الا قد أرى أن المنايا تصيبني
فمالي عنهن انصراف ولابد

اله العرش لاتجعل ببغداد ميتتي
ولكن بنجد حبذا بلدا نجد

أدخل على عبد الملك بن مروان عشرة قد حكم عليهم بالموت بأمر بضرب رقابهم وكا يوم غيم ورعد وبرق فضربت أعناق تسعة منهم، وقدم العاشر ليضرب عنقه فبرقت برقة فأنشأ يقول:

تألق البرق نجديا فقلت له
يا أيها البرق اني عنك مشغول

بذلة العقل حيران بمعتكف
في كفه كحباب الماء مسلول

فقال له عبد الملك ما أحسبك إلا وقد حننت إلى وطنك وأهلك وقد كنت عاشقاً، قال : نعم يا أمير المؤمنين. قال: لو سبق شعرك قتل أصحابك لوهبناهم لك. خلو سبيله.

ونجد عندي مكان القلب، ومهما قلت فإن محبتها راسخة في النفس رسوخ جبال العارض وجبال طي ورمال القصيم.

يقول الشاعر :

أنا في نجد ولدت
اسمر اللون واضح القسماتِ

ربيت بين جبالها وسهولها
شعابها رياضها النظراتي

ترابها من معدن طيب
عبق التاريخ خالطه النباتي

تعطرت من عود الغضا
واريج الشيح في نسماتي

* * *

بيوتنا شامخة في العلا
يأتيها القاصد من كل الجهات

كراماً إذا حل الضيوف بيننا
تدين له النفوس خدمة وسقات

نعلله باعذب الألفاظ
ونطري البعيد بخير صفات

هذي سجايانا جميعاً
عراقه في المجد والكرامات

من يسأل عني بعد هذا
أقول نجد موطني وحياتي

نبذة تاريخية

قبل أن نشرع في بداية الرحلة يجدر بنا أن نعطي القارىء الكريم نبذة تاريخية عن المدن والقرى وموارد المياة التي مررنا عليها.

مدينة بريدة[1] عاصمة منطقة القصيم تقع على خط العرض ١٧/٢٦ شمالاً وخط الطول ٥٥/٤٣ وموقعها على الضفة الشمالية لوادي الرمة المعروف. وتقع المدينة على المهاد الرسوبية المتناثرة في كثبان نفود بريدة وتحيطها القرى التي تعرف باسم الخبوْب.

وقد تكونت هذه البقاع الخصبة نتيجة لفيضان وادي الرمة وضلت البساتين وأشجار النخيل الكثيرة تستمد من الوادي المياه الوفيرة.

يذكر ياقوت أن بريدة (تصغير بردة) ماء لبني ضبينة من قبيلة عبس ويسلم الجغرافيان الخانجي وابن بليهد بهذه التسمية باعتبارها الأصل في اسم المدينة الحالية.

ويقال أن أول من انشاء مدينة بريدة بنو تميم منذ ثلاثة قرون وأكثر. وقد زارها المستشرق بالكريف سنة ١٨٦٢م فذكر أن عدد سكانها ٢٥٠٠٠ نسمة إذا أضيف إليها سكان القرى المحيطة بها.

ونقول اكتسبت مدينة بريدة[2] اهمية ومركزاً كبيراً لموقعها المتوسط من طريق التجارة بين البصرة والمدينة. فاسواقها مزدحمة بالسلع ولها سوق خاص بالأبل والخيول.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ١٨٦ منشورات دار الشعب بالقاهرة.

(٢) كتاب العقيلات للمؤلف ص ١٦.

وقد شيدت بيوت المدينة من اللبن والحجارة وشوارعها فسيحة ومنظمة وحولها سور سمكه قدمان تحيط به البساتين والنخيل و يستدل من ارتفاع مئذنة جامع بر يدة الكبير على أنه شيد منذ قرنين كما يذهب إلى أن القلعه (قصر بر يدة) في بعض اجزاءه المبنية بالحجاره أقدم من هذا التاريخ.

وتوكد الروايات المحلية وأقوال المستشرقين والرحالة الأجانب بأن القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي هو التاريخ المحتمل لإنشاء المدينة ويميل المستشرق (كاسيل) الى أن تاريخ إنشاءها هو ٩٥٠هـ/١٥٤٣ ــ ١٥٤٤م إلا أن الدلائل الكثيرة تشير إلى أنها انشأت قبل ذلك.

ونرجح تاريخ انشاء المدينة نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي على اعتبار أنها كانت سوقاً مشهوراً للتجارة تتوسط طرق التجارة بين الخليج العربي والبحر الأحمر وتعمير أكثر الموارد مثل الدرعية ــ العينية ــ المجمعة ــ الغاط ــ بر يدة ــ عنيزة ــ الرس ــ عيون الجواء وعقد أحلاف بين القبائل التي تقطن هذه الموارد ثم ظهور زعامات داخل مناطق نجد بعد تعمير المدن.

عقدت أحلاف بين أهل القصيم [1] وقبيلة عنزة وقبائل شمر، وحرب ومطير أدت هذه الأحلاف إلى نوع من الاستقرار يسرت سبل التجارة والقوافل، وقام بعض رؤساء هذه القبائل بممارسة دلالة قوافل التجارة وقوافل الحجاج، وأنشأوا المدن وحفروا الآبار، ومهدوا الطرق، وازدهرت مع هذه التبدلات تجارة المواشي من الابل والخيول.

وعندما توحدت المملكة العربية السعودية على يد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود أصبحت مدينة بر يدة هى همزة الوصل في تجارة الجز يرة العربية بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وازدهرت تجارة الخيول والابل والماشية إلى أسواق العراق والشام ومصر، يقوم بها تجار من أهل بر يدة

---

(١) كتاب العقيلات للمؤلف ص ٣٣.

عرفوا باسم (العقيلات) وهو مانسجله في هذه الرحلة.

يقول الشاعر محمد العوني ــ رحمه الله ــ :

أبكي على دار ربينا بجالها
معلومها خشم الرعن من شمالها

ومن شرقها طعسين الاراخم تحدها
بين اللواء والسر ما أطيب سهالها

دار بنجد جنة كان قبل ذا
من صكته غبر الليالي عنالها

قال أعرابي :

يقر بعيني أن أرى رملة الغضا
اذا ظهرت يوما لعيني تلالها

وقال مالك بن الريب :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

وليت الغضا يوم ارتحلنا تقاصرت
بطول الغضا حتى أرى من ورائيا

لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا
مزار ولكن الغضا ليس دانيا

البداية

كنت قد ختمت القرآن الكريم وتعلمت بماديء الخط العربي والحساب في كتاب الشيخ محمد بن صالح الوهيبي. وعمري انذاك قد تجاوز الثانية عشر.

كان والدي رحمه الله قد وصل من رحلته إلى الشام وبدأ يشتري الإبل إستعداداً لرحلة أخرى. اشترى رعيتين من الإبل تركها ترعى في المراعي القريبة شرقي القصيم.

في عام ١٣٦٣هـ كانت الحكومة السعودية قد بدأت ارسال بعثاتها التعليمية الى الخارج لتلقي التعليم وانشأت من أجل ذلك مدرسة سميت (مدرسة تحضير البعثات) مقرها مكة المكرمة إذا جاوز الشاب فيها مرحلة من التعليم ابتعث إلى الخارج لتكملة دراساته العليا.

الحكومة بنواياها الحسنة تريد أن تسابق الزمن فالجهل مطبق والبلاد بحاجه إلى تنمية شاملة وتدرك أن التنمية لا تقوم إلا على أكتاف وجهود أبناء البلاد أنفسهم وهي لذلك تعد العده لهذا الموضوع.

كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها وأعتبر الناس أختيار الشباب في هذا الوقت إنما هو للاشتراك في الحرب الآباء جزعين خائفين على أبناءهم من الذهاب إلى الحرب ليس للدراسة كما تقول الحكومة. وأعتبر أن من ذهب من هؤلاء الشباب فلن يعود هكذا خيل إليهم.

والآباء في خوفهم معذورين، لقد جاءت هذه البعثات في وقت

كانت رحى الحرب العالمية الثانية دائرة، حتى أن كثيراً من الطلاب قد هربه أهله من بلد إلى آخر، والبعض حاول القفز من السيارة التي تقلهم إلى الحجاز.

واتضح مع الأيام أن من ذهب إلى الدراسة قد عاد ومعه شهادة علمية، أهلته إلى أن يتبوأ المناصب العلمية في كافة مناطق التعليم، ولم يكن جزع أو خوف الآباء له ما يبرره، وكان لي زملاء وأصدقاء كثيرون منهم في قيادات التربية والتعليم والآن تلك بداية أردت تسجيلها.

قلت إن الوالد لايزال في بريدة والحرب العالمية الثانية على أشدها، نسمع في الأخبار أن المانيا احتلت النمسا و بلجيكا وفرنسا، وجاء الدور على بر يطانيا.

وقبل ذلك اتجهت الجيوش الألمانية إلى الشرق مخترقة ايطاليا، عبرت البحر الأبيض المتوسط إلى ليبيا، كنت أرافق الوالد ـــ رحمه الله ـــ إلى حيث يلتقي مع أصحابه ورفاق عمره: سليمان الناصر الوشمي ـــ إبراهيم الحمد العويد ـــ عبد الله الصالح الصقعوب، وكانوا يسهرون كل ليلة في بيت سالم إبراهيم الدبيب، إلى جوار الراديو الوحيد في مدينة بر يدة، يستمعون إلى أخبار الحرب العالمية الثانية وتطورات القتال بين مختلف الجيوش.

ولقد سمعت إذاعة الشرق الأدنى، وإذاعة المانيا، تذيعان أخبار الحرب، ووصول الجيش الألماني إلى العلمين على ساحل البحر الأبيض المتوسط، التي تبعد عن الاسكندر ية مسافة مائة وعشرون كيلو متراً تقر يباً، حيث دارت معركة طاحنة وحاسمة في هذه المنطقة بين جيوش الحلفاء والمانيا، بين قائدين ملآأسماع الدنيا بأخبارهما: رومل القائد الألماني، مونتوغمري القائد البر يطاني، كنت أسمع حواراً يدور في الجلسة عن

شجاعة هذين القائدين، وكانت الغلبة في النهاية للقائد البريطاني الذي لقب بثعلب الصحراء، هكذا سمعت من إذاعة الشرق الأدنى ولازلت أذكر اسم المذيع يومئذ (راجي صهيون).

وفي إحدى الليالي من شهر صفر ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م علمت أن جلالة الملك فاروق ملك مصر، قد قام بزيارة إلى المملكة العربية السعودية، واجتمع في هذه الزيارة مع جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله ولم يكن يعلم ذلك الخبر إلا القلة القليلة من الناس لعدة أسباب: أهمها: أنه لا توجد وسيلة الأستماع ولا صحف تصل إلى المنطقة يقرأها الناس.

وفي إحدى ليالي شهر ربيع الثاني من عام ١٣٦٤هـ كنا في بيت سالم الدبيب عندما سمعت إذاعة المانيا تذيع نبأ إعلان الحكومة السعودية الحرب على دول المحور: المانيا واليابان وايطاليا، والمذيع هو يونس بحري الذي علق على هذا الإعلان بقوله: ماذا يقصد الملك عبد العزيز بن سعود من إعلانه الحرب على المانيا، هل لديه قوة يحارب فيها أساطيل المانيا، وإذا كان قد وضع الحرمين الشريفين مدينتين مفتوحتين، هل يريد المانيا أن تحارب خراب الدرعية؟

مكونات الرحلة

كانت أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت أبان الحرب العالمية الثانية ارتفاعاً كبيراً، ارتفعت أسعار القهوة والهيل والسكر والشاي في مناطق أخرى من المملكة خاصة تلك المدن القريبة من الحدود السعودية الأردنية العراقية مثل الجوف والقريات. وقد وصلت تلغرافات إلى التجار في بريدة من تجارهذه المدن يطلبون إرسال القهوة والهيل والشاي والسكر، لارتفاع أسعارها وتوافرها في القصيم.

عند ذلك قرر الوالد والعويسي شراء هذه المواد، والسفر بها إلى الجوف في طريق رحلتهم إلى الشام. وكانت الحكومة السعودية تشدد على خروج مثل هذه المواد من مناطق إلى أخرى مالم يضمن بيعها داخل المملكة، والسفر بهذه المواد يتطلب موافقة أمير القصيم يومئذ ــ عبد الله الفيصل آل فرحان ــ مقابل تعهد من التاجر يكتبه على نفسه بأن يبيع هذه المواد داخل الحدود السعودية مقابل خطاب من أمير المنطقة التي ستباع فيها هذه المواد.

واتفق على تجهيز شراء المواد : السكر والشاي وبعض الأقمشة تخص محمد العويس، وتحملها ثمانية جمال، القهوة والهيل بنفس القدر تخص الوالد.

كان الوالد ــ رحمه الله ــ قد اشترى قبل فترة رعيتين من الإبل، واشترى محمد العويسي رعية من الإبل من أسواق بريدة، وتركوها ترعى في الصريف شرقي مدينة بريدة، وحددا موعداً للرحلة في أول شهر جماد

الثاني ١٣٦٤هـ. وقبل الأستعداد للرحلة صحبت الوالد ومحمد العويسي إلى الصريف للاطمئنان على الإبل والاتفاق مع الرعيان على موعد اللقاء على أحد الأمواه القريبة من الطريق الذي سيسلكونه إلى الجوف، واختيار الإبل التي ستحمل البضائع والمطايا التي يستقلها التجار والخويا والمرافقون، وكلف أحد الرعيان باحضارها إلى بريدة يوم ٩ من شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ، وحدد موعد للرعايا على (عين عيسى الرميح) في قصيباً يوم ١٢ من نفس الشهر، وتحدد سفر القافلة من بريدة يوم ١٠ من الشهر، واختيار هذا التوقيت من الشهر له أسبابه التي عرفتها فيما بعد.

كان العقيلات يحددون سفرهم في شهور الصيف، ويختارون بداية الشهر القمري حتي تتمكن القافلة من السير بالليل اتقاء لحرارة الشمس بالنهار.

وهكذا تكونت القافلة من شراع الوالد يتبعه من الرعيان والخويا والمرافقين شراع محمد العويسي وما يتبعه في رحلته هذه.

وتفسير معنى الشراع كأن يقال: سافر فلان ومعه مائة شراع وهو اصطلاح عرفه العقيلات في رحلاتهم، وشراع الوالد يتكون منه ومني ومحمد أبو يوسف من أهل العيون (أشكى) كلمة أعتقد أنها عراقية تعني أنه مسئول عن جميع متطلبات القافلة من مواد غذائية، وبالتالي مسئول عن الطباخين الموجودين في الشراع، فمثلاً كان عبد العزيز الشقيران (قهوجي) مسؤولاً عن متطلبات القهوة والشاي والماء والحطب. فلاح بن وطبان راع مسئول عن رعية من الإبل. خلف بن حمدان (ملحاق) يسير خلف الإبل أثناء سيرها وتجميع ما شرد عنها في المرعى، عبيد بن لافي مسئول عن الرعية الثانية، ومعه ملحاق عايد بن مليح والرعية تتكون من ٨١ رأساً من الإبل، والعدد الفردي هي (القعدة) التي تسير في مقدمة الرعية، ويركب عليها الراعي. الملحاق له أيضاً راحلة يحمل على ظهرها زاد رحلته هو

والـراعي و يسير خلف الرعية، والقعدة تتميز بلون من ألوان الإبل كأن يقال قـعدتهـا (مـلـحـا) أو شقـحاء ويختار من الإبل أحد الجمال المدربة يخصص لعملية (سقيا) الإبل في الموارد.

شـراع محـمـد الـعـو يسي يتكون منه، ومن عبد الله الحربي مرافق، وحمد الـشبـعـان، مـسئول عن الثاية، وسليمان الزايدي قهوجي، وعبيد بن خليف راعـي، مـشـعـل بن ضـويحـي ملحاق، وقد يرافق الرحلة أحد العقيلات ممن لايـكـون لـه صـفة التاجر، ولا الأجير وإنما هو مرافق رحلة معزز مكرم حتى يصل إلى مقصده.

وتـتـكـون الـقـافـلـة مـن ذلـول للوالد عليها خرجه ومتطلباته من الملابس والـفـراش وغـيـره، وذلـول لـي وعـليـهـا بـعـض مـن أمتعة الرحلة وخرج فيه مـلابـسـي، وجملين آخـر ين تحمل أمتعة الخو يا والمرافقين، ومتطلبات الرحلة مـن زاد وقـرب للماء، والـشـراع، وثـمـانـيـة مـن الإبـل تحـمل القهوة والهيل لـلاتجـار، ذلول محمد العو يسي، وذلول لعبد الله الحربي، وأربعة جمال تحمل الـثـايـه، ومـعـدات الـرحـلـة وثمانية من الإبل تحمل السكر والشاي و بعض الأقـمـشـة لـلاتجـار، فيكون مجموع جمال القافلة ستة وعشرون رأساً من الإبل، ورعـيـتين لنا ٩١ رأساً من الإبل مع الراعي فلاح بن وطبان، و٨١ رأساً من الإبـل مـع الـراعـي عـبـيد بن لافي يكون المجموع ١٧٢ ورعية للعو يسي ٨١ رأساً من الإبل.. هذه هي مكونات رحلتنا.

بداية الرحلة

خرجنا من مدينة بريدة يوم العاشر من شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ ــ ١٩٤٥م.

كان في وداعي والدتي وجدتي واخوتي الذين أفاقوا على غير العادة مبكرين حتى يكونوا في وداعي. وفراق الأهل والأحباب لايحس به شاب في مقتبل العمر كان فرحاً بركوب الذلول في رحلة إلى المجهول.

كان وداعاً حاراً من أهل البيت، لكن فرحتي وسعادتي بهذه الرحلة أنستني ألم الفراق ودموعهم التي سالت وهم يودعونني ربما فراق لا لقاء بعده، فهذه سنة الحياة. قفزت إلى ظهر الراحلة أمام نظرات اخوتي وهم صغار في عزة وكبرياء، نهضت بي الراحلة أمام بيتنا، مستعرضاً قدرتي على ركوب الراحلة أمام إخوتي ــ سارت القافله تتهادى، الوالد رحمه الله ومحمد العويسي ــ جارنا في المنزل ورفيق الرحلة ــ في المقدمة تتبعهما القافلة في نظام.

يوم خرجنا من مدينة بريدة كانت المدينة لازالت تحتفظ بأسوارها وبوابات للخروج والدخول تفتح وتقفل وفق مواعيد معينة، خرجنا من الباب الشمالي للمدينة ومكانه الآن قبل شارع الوحدة الذي يلتقي بشارع الصناعة بحوالي خمسة أو ستة بيوت، أرض فضاء ورمال نفود الشماس، ونفود بريدة، ونشاهد على البعد (المرقب) وحوله جفر الحمد المعروفة والتي أصبحت الآن مقراً لمعهد التدريب المهني ومبنى لإدارة بلدية بريدة.

كانت بريدة ــ كما قلت ــ تحتفظ بأسوارها وأبوابها، وقصر الامارة

مبنى كبير يقع في الشرق من المدينة وحوله باب صغير بجوار سور القصر، يدخل منه القاصد إليه و بنى مايشبه الكراسي (مصاطب) تبتدي من باب القصر إلى الباب الصغير يفرش عليها السجاد ويجلس إليها الضيوف والأمير في الوسط وحوله الخويا. فيرى الجالس في الجرده (السوق الكبير) في بريدة.

سور المدينة باب كبير بجوار الباب الصغير يدخل منه العامة من الناس، ثم ينعرج سور المدينة من هذا الباب إلى الشرق حتى الباب الكبير الثاني و يسمى الباب الشرقي وموقعه بجوار بيت فهد الشريدة ثم يستمر السور إلى الجنوب حتى يصل إلى شارع السويد، وكان هناك بئر للماء يشرب منه الناس ثم يستمر السور و ينعطف إلى الغرب حيث يوجد الباب الجنوبي الشرقي وهو مايوازي الشارع المسمى الآن شارع الملك عبد العزيز حيث مسجد (الحميدي) الشيخ محمد الصالح المطوع.

ثم يستمر السور إلى الغرب حيث الباب الجنوبي الغربي الذي يخرج منه الناس إلى مقابر فلاجه والصباخ وماحوله ثم ينحرف السور إلى الشمال حيث يوجد باب يسمى باب الشقيري – يخرج منه و يدخل إلى المدينة أهل الخبوب الواقعة غرب مدينة بريدة.

وهناك برج يسمى برج (الصنقر) يرتفع غربي المدينة ثم يستمر السور حتى الباب الغربي و يسمى باب العجيبة وهكذا ينحرف إلى الباب الشرقي السابق ذكره حتى يتصل بالباب الشمالي التي خرجت منه القافله. هذه هي أسوار المدينة في ذلك الوقت.

وإذا نظرنا إلى خارج المدينة من الشرق نجد المقابر التي يفصل بينها وبين المدينة وادٍ وهو شارع الخبيب الآن، حيث كانت السيول من الودي تصب فيه حتى يصل إلي السادة نخيل ومزارع وقيل أنه يستمر حتى يصب

في وادي الرمة لكن الرمال تكونت بفعل الطبيعة واصبحت حائلاً دون إتصاله بالوادي.

وإلى الشرق من المقابر يقع النفود الشرقي وفيه (أثول) ــ جمع أثل ــ أشجار كبيرة كان يقال لها أثل (الجرب) وهي الإبل التي يصيبها الجرب تربط في هذا المكان حتى لا تنقل العدوى إلى غيرها من الإبل، وموقعها الآن إدارة التعليم والمعاهد والمدراس التي حولها.

وعندما أقام أمير القصير سابقاً : عبد الله بن مساعد عام ١٣٧٨هـ قصر الإمارة أنشىء شارع في وسط النفود الشرقي يبتدىء موقعه من ادارة التعليم ــ مستشفى بريدة المركزي الذي أنشىء عام ١٣٧٦هـ أصبح هذا الشارع يعرف بشارع الامارة.

ومن الجنوب لم يكن خارج أسوار المدينة سوى (مصلى العيد) ومقبرة فلاجه أما في الغرب النفود من الشمال تقع الصفراء جبال يستخرج منها الحجارة لبناء البيوت وجفر الحمد حيث تستقبل مياه الأمطار وتختزنها، وإذا امتلئت تخرج إلى مجرى الخيب الشارع الرئيسي في مدينة بريدة يستخرج منها الطين لبناء المنازل.

ولم تكن المياه العذبة متوفرة في مدينة بريدة حتى عام ١٣٧٤هـ كانت تشرب من مياه الآبار مثل الصقعا وحسو السويد والفوطه نخل المشيقح والصبيحية حتى حفر بئر العزيزية في مدينة بريدة، وتم توزيع المياه إلى بيوت المدينة.

خرجنا من المنزل وسلكنا طريقاً فرعياً حتى دخلنا إلى شارع الباب الشمالي، هكذا كان يسمى في ذلك الوقت.

أما الآن فاسمه شارع الصناعة تجمعت القافلة حول بئر العييري المرحوم فهد العلي العييري، أوقفه ليسقى منه السابلة وأصحاب القوافل وموقعه في

السابق ناصية شارعي الوحدة ـــ الصناعة الآن.

قام عبد الله الحربي، وعبد العزيز الشقيران بسقي الإبل وتعبئة قرب الماء للشرب، وبعد أن تزودت القافلة بالماء وتم سقيا الإبل، تحركنا في حوالي الساعة السادسة صباحاً تاركين مدينة بريدة وراء ظهورنا، وكنت على ظهر راحلتي التفت يميناً ويساراً، ألقي النظرة الأخيرة على أسوار المدينة وهي تبتعد عني شيئاً فشيئاً.

سرنا باتجاه الشمال حيث جفر الحمد وهى يومئذ يأخذ الناس منها الطين لتعمير بيوتهم، وفي غربيها يقوم (المرقب) بناء مرتفع يشبه إلى حد كبير مئذنة أقيم هذا البناء في زمن الحروب كي يكون نقطة مراقبة يقيم فيه عدد من المحاربين يتولون حراسة المدينة وتنبيه السكان بقرب الغزو.

والمرقب أو الأبراج والحصون [1] اقتبسها خلفاء الدولة الأموية، وأقاموها على الحدود البيزنطية ثم أصبح وجودها من الضروريات التي لاغنى عنها في نظام المباني المدنية والدينية بفضل ماتضيفه على مظهر تلك المباني من بهاء، وكانت أيضاً تستعمل خارج المدن كأبراج للمراقبة (أي لأغراض عسكرية) واستمر هذا التقليد مرعياً بعد ذلك في الأربطة والخانات، وتزودنا عمائر نهاية القرن الثاني الهجري (أوائل التاسع الميلادي) بمثال رائع منها قصر الاخيضر بالعراق، بأبراجه النصف دائرية وبأعلى كل برج منها غرفة صغيرة لقذف اللهب على المغيرين.

وهكذا تقابلنا الأبراج الأثرية التقليدية مرة أخرى في التحصينات العربية في القرون الوسطى على أيام امارة الأيوبيين وقلاع القاهرة وبصرى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٣ ــ ٤.

ودمشق وحلب وغيرها من المدن العربية [1].

وقد شاهدت هذا البرج المعروف (المرقب) شمالي مدينة بريدة عندما كنت صبياً ألهو مع أقراني حوله وفي داخله شاهدت ارتفاعه الذي يزيد عن عشرين متراً مثلث الأضلاع وبه بعض الغرف والمطلات (الكواتيل) إلى الخارج وهو منفذ يطل منه الحراس لمعرفة القادم دون أن يراهم ومزوده بفتحات لفوهات البنادق.

اتجهت القافلة إلى حيث نفوذ الشماس صعوداً على رماله المرتفعة وفي قمة النفود تطلعت من خلفي إلى منظر المدينة من بعيد كان المرقب شاهقاً، وأسوار المدينة تلوح من البعد.. ليتني كنت يومها أحمل آلة تصوير فوتوغرافية لأسجل هذ المنظر الفريد، بلوحة جميلة أحتفظ بها وبمعالم المدينة وأسوارها نخيل الشماس، نخيل التغيره، الغاف والوديان والسهول. هذه المعالم التي جرفتها المدنية، وحرمتنا حتى من البقية الباقية من الآثار والمعالم مثل قصر بريدة القديم والمرقب والصنقر، وغيره الذي اندثرت معالمها دون أن تراها هذه الأجيال.

وإذا كان نفود الشماس هو المطلع والطريق الوحيد للعقيلات في سفراتهم فإنه أي النفود قد أصبح في عصرنا الحاضر طريقاً معبداً تستعمله السيارات المتجهة إلى الصبيحية وبعض (الخبوب) القريبة منه، ويلتقي بطريق المدينة الرئيسي الذي يعتبر أكبر شوارع مدينة بريدة، وهو الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة المنورة، يتفرع منه طريق الشقة السفلى والشقة

(١) ففي خلال العصور الوسطى تعرض العالم الإسلامي لأخطار خارجية تمثلت في الغزو الصليبي لبلاد الشام في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) والغزو المغولي للعالم العربي والإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) مما دفع حكام العالم الإسلامي إلى إنشاء المزيد من الاستحكامات والأبراج والحصون.

العليا وآثال وعيون الجواء ــ القرعاء المليداء (مطار القصيم) وغيرها من القرى والمدن المجاورة.

نزلت القافلة إلى حيث بلدة الصبيحية وهي شمالي الغاف وإلى يسارنا تقع كثبان الرمال المرتفعة : نفود الشماس ــ نفود الغاف، وإلى اليمين الصفراء وهي جبال صغيرة، شيدت أروقة المساجد والمباني والأعمدة من حجارة هذه الجبال، وكذلك أسست أكثر بيوت المدينة من هذه الحجارة.

وأشهر من يعملون على قطع الأحجار من الصفراء عائلة القاسم وعائلة الفريحي في ذلك الوقت.

والطريق الذي سلكناه عند نزولنا من نفود الشماس يقع مابين كثبان الرمال إلى اليسار والصفراء إلى اليمين وعلى البعد لاحت لنا الشقة السفلى، وهي صحراء خالية إلا من روائح النباتات التي تكثر في هذا المنخفض حيث تنزل الأمطار من الصفراء والودي مكونة تجريفات من الطينة المختلطة بالرمال وتكثر فيها النباتات التي تلتهمها الإبل وهي تسير.

وهذه المنطقة معروفة الآن بـ (حي المنتزه) وطريقنا الذي نسلكه يخترق طريق المدينة باتجاه موقع معارض السيارات الآن وهو أيضاً الطريق المعبد الذي يترك صوامع الغلال إلى اليسار حيث المنخفض الذي تتجمع فيه الشقتان السفلى والعليا، والأرض هناك خضراء والعشب مرتفع عن الأرض. وفي إحدى الرياض مابين الشقتين توقفنا هناك في فترة الراحة وهي مايسمونه (المضحى) حيث تركت الإبل ترعى وعليها الأحمال وبدأ الطباخون والقهوجية يعدون لطعام الغداء والقهوة.

وتفرقت مجموعة الخويا يجمعون الحطب (والمعازيب) أي التجار فرشوا السجاد وحفروا (الوجار) (حفرة في الأرض جمعوا فيها الحطب وأوقدوا

النار) وكنت جالساً مع الوالد عندما نظر إليّ قائلاً (رح)[1] شارك الخويا في جمع الحطب.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي بدأ الوالد رحمه الله في تدريبي عملياً على الاشتراك مع أفراد المجموعة في جمع الحطب، وأخذ عبد العزيز الشقيران ـــ وهو المسئول الأول عن (شراعنا) ـــ الفاروع والمسحاة وبدأ في تقطيع الأشجار اليابسة وأنا أجمع مايقطعه بيدي التي لم تتعود بعد على الخشونة، وأثناء جمع الحطب دخلت في أحد أصابعي (شوكة) آلمتني وتوقفت عن العمل محاولة لإخراجها لكن عبد العزيز الشقيران نظر إلي كمن يقول هذا شيء بسيط، الجاي أكثر من الرايح، فخيل إلي أنه يعاتبني لكنه أخرج من جيببه (منقاشاً) رماه إلى قائلاً خذ طلع (الشوكة). وتم جمع الحطب وأوقدت النار، وأخذ الطباخون يجهزون طعام الغداء والقهوجية يعدون القهوة والشاي. كان الجو صيفاً والشمس تميل إلى الحرارة ولم تكن الحاجة تدعو إلى نصب الخيام، فوقت المضحى لايستغرق سوى سويعات قليلة بعدها تواصل القافلة رحلتها.

انتهينا من تناول الطعام وشربنا القهوة والشاي، وكان هذا أول طعام أتناوله في رحلتنا، فلم أكن قد خرجت بعد للصحراء كما يفعل أبناء هذا اليوم في رحلات يبدأونها يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، ويسمونها(الكشته) حيث يجتمع عدد من الشبان يشتركون في ذبيحة ومواد الطبخ والقهوة والشاي ويخرجون إلى الصحراء في الربيع يصطادون الطيور والأرانب، تلك رحلات عرفتها بعد ذلك. أما هذه الأكلة فهي الأولى بعد

---

(١) لكي تكون صورة الرحلة التي قمت بتصويرها على هذه الصفحات أقرب إلى الواقع والحقيقة، استخدمت بعض الألفاظ والمصطلحات المعمول بها رغم اختلافها عن لغتنا العربية المكتوبة، والمقروءة، ولكن لكي أقرب للقاريء الواقع بتفاصيله.

خروجنا من مدينة بريدة، ثم أذن الوالد لصلاتي الظهر والعصر قصراً، وأم المصلين محمد العبد الله العويسي، وبعد انتهاء الصلاة حملت جمال الثاية، وبدأنا في المسير.

كنت أنظر أمامي على مرمى البصر فأجد سحاباً من المياه لكنني كلما حددت مكانه انجلت هذه المياه، فأحاول أن اسأل أقرب واحد إلي في الرحلة وهو عبد العزيز الشقيران عن هذا الماء اعيد النظر فأراه قد انجلى فتوقفت عن السؤال أول الأمر خجلاً، لكن حب الاستطلاع لدى تغلب على هذا الخجل، وعبد العزيز الشقيران ــ كما قلت ــ أقرب إلي من الوالد رحمه الله، الي كنت أخاف نظراته، وهو بطبيعته لايحب كثرة الكلام، سألته عن هذه المياه ضحك قائلاً (هذا ماهوب ماء!): هذا سراب، أدركت حينئذ قوله تعالى في كتابه الكريم: **«كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء»**.

اتخذنا مسيرنا باتجاه الشمال تاركين الشقة العليا على اليمين ونرى على البعد أثال على يسارنا باتجاه الشمال الغربي.

وأثال هذا الموضع [1] على طريق الحجاج بين الغمير وبستان بن عامر قال عنه كثير:

ترمي الفجاج اذا الفجاج تشابهت
أعلامها بمهامة أغفال

بركائب من بين كل ثنية
سرح اليدين وبازل شملال

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع جـ ١ ص ٢٤ ــ ٢٥.

اذا هن في غلس الظلام قوارب
اعداد عين من عيون أثال

غربت شمس يوم ١٠ جماد الثاني ١٣٦٤هـ ولم نكن قد وصلنا بعد إلى قصيباً، توقفت القافلة وأذن محمد العويسي لصلاة المغرب والعشاء، قصراً وأم المصلين وبدأ في قراءة الفاتحة ثم سورة التين، والعويسي ــ كمعظم أهل الزلفى يقرأون القرآن بلكنة غريبة، يشدد على بعض الآيات القرآنية، فصدرت مني ضحكة أغضبت الوالد، وكنت اصلي إلى جواره، فجذبني من يدي وضربني ضربة خفيفة على يدي فكتمت ماتبقى من ضحكتي.

وبعد أن فرغنا من الصلاة عاتبني بنظراته فقط، ثم سألني عن سبب الضحك فأجبته بأنني تذكرت شيئاً أضحكني قال لي (لا تعود له) أي لا تعود لمثل ذلك، لكنني بعد قليل ملت على عبد العزيز الشقيران وأفهمته عن سبب ضحكتي وهي لهجة العويسي في قراءة القرآن الكريم.

وفي أثناء السير فهمت من الوالد أننا الآن بشمالي (اللبيد) وهي صحراء كثيرة الأشجار والعشب والإبل ترعى فيها أثناء سيرها.

والبطين واللبيد : المواضع التي يستريض فيها ماء السيل. بطن اللوى[1] : ذكره الأصمعي في بلاد أبي بكر بن كلاب فقال لهم: ثم بطن اللوى صدره لهم وأسفله لبني الأضبط وأسفل ذلك فزارة وهي واد ضخم قال ابن ميادة:

ألا ليت شعرى هل يحلن أهلها
وأهلي روضات ببطن اللوى خضرا

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٤٤٩.

وهما يعدان من أخصب المراعي في ذلك الوقت، أما الآن فهي من أجود وأحسن الأراضي الزراعية المنتجة للقمح والأعلاف وفيها مزارع لإنتاج الدواجن وأخرى لإنتاج الحبوب والغلال.

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، ومازالت القافلة تجد في السير، ولاحت لنا أنوار خفيفة على البعد، فعرفت أنها بلدة قصيباً، وسمعت الوالد يحادث العويسي قائلاً: نعدي مجرى الغين وننزل إلى الشمال من البركة الكبيرة، فرد العويسي (هدا) وهذه الكلمة جديدة علي، وعرفت معناها أنه لابأس بالتوفيق والهدى.

المورد الأول

في المكان المحدد حطت القافلة أحمالها بالقرب من مصب العين حول البركة الكبيرة التي خصصها المرحوم عيسى الرميح لسقيا السابلة والعربان التي ترد في فصل الصيف، سألت مرافقي عبد العزيز الشقيران عن هذه العين وكيف تجري ومن أين منبعها، أسئلة كثيرة أرجأ الإجابة عليها إلى الصباح، حيث كلفه الوالد مع أبي يوسف وحمد الشبعان للذهاب إلى بيت أمير قصيبا [1] وهو يومئذ عبد الرحمن الراضي ـ لاحضار الحطب، وكان بيته مفتوحا للناس. هكذا سمعت. عاد الخويا من بيت الأمير ومعهم سراج يلوح ضوؤه على البعد وبرفقتهم اثنان من الرجال يحملون الحطب وفي مقدمتهم الأمير الذي قام عند طرق الباب وهب لاستقبال ضيوفه حضر بنفسه حتى يطلب إلى الوالد النزول في بيته، اعتذر الوالد والعويسي للرجل الكريم، لكنه أصر إذا لم يحضروا إلى قصره فلابد من موعد آخر، للضيافة، فوعدوه مساء الغد، عاد إلى قصره وبعد فترة من الوقت حضر أحد خوياه ومعه ذبيحتان لعشاء القافلة هذه الليلة.

بدأ أبو يوسف وحمد الشبعان يذبحان الخراف ويعدان العشاء، وكانت سهرة قضيناها في شراع محمد العويسي، سمعت فيها لأول مرة أحاديثهم، ورحلات البيع والشراء وسفرات العقيلات الأوائل، وأحسست بنوع من الألفة وبدأ لساني ينطق بأسئلة كثيرة عن الرحلات والسفرات، وعن موارد المياه.

---

(١) والد راضي الدحيم أمير قصيباً الحالي. حيث يعرف باسم دحيم.

عرفت أن قصيبا فيها مزارع كثيرة، ونخيل عامرة، وفيها عين تجري من أحد الجبال وتصب في مزرعة عيسى الرميح، من أكبر وأشهر العقيلات الأوائل، حفر هذه العين واتخذها مقراً لإقامته في الصيف، يرتادها هو وكبار العقيلات وهي مجمع للعقيلات عند سفرهم ترد إبلهم على حوض كبير بناه للسقياء، ومضافة كبيرة يستضيف بها السابلة والمحتاجون من العقيلات وغيرهم.

وقصيبا لها شهرة معروفة في التاريخ القديم، حيث ذكرت المراجع أنها أرض لبني تميم، وقيل لبني امرىء القيس وللحرب في قصيبا يوم معروف باسم يوم أواره[1].

---

(١) معجم البلدان ياقوت جـ ٤٠ ص ٣٣٦ ـــ ٣٦٧.

قال الأعشى :

وتكون في السلف الموازي ... فقرأ وبني زراره

أبناء قوم قتلوا ... يوم القصيبة مذاواره

وقالت وجيهة بنت أوس الضبية :

وعاذلة هبت بليل تلومني ... على الشوق لم تمح الصبابة من قلبي

فمالي ان أحببت أرض عشيرتي ... وأحببت طرقا القصيبة من ذنب

فلو أن ريحاً بلغت وحي مرسل ... خفيفاً لناجيت الجنوب على النقب

وقلت لها أدي إليها تحيتي ... ولا تخلطيها طال سعدك بالترب

فإني إذا هبت شمالاً سألتها ... هل ازداد صداح النميرة من قرب

أقمنا في قصيبا يوم الحادي عشر، وبدأت في التعرف على مجرى العين بداية من مصبها في حوض كبير مبني من الحجارة والطين، وتنساب المياه بانحدار من جبل ليس عالياً، والمجرى كبير ومسقوف وكل خمسين متراً تقريباً تجد فتحة تنظر منها على سير المياه.

وفي المساء أقام عبدالرحمٰن الراضي ــ رحمه الله ــ مأدبة عشاء وسهرة ممتعة.

تبودلت فيها الهدايا وهذه إحدى العادات العربية القديمة.

وفي اليوم الثاني عشر بدأت جولة في المزارع والنخيل وطرق توزيع الري إلى الأراضي الزراعية التي تُسقى من ماء العين بأيام محسوبة، ولما حل المساء بدأت الرعايا تصل وتم توزيع السقياء للإبل حيث يرد إلى الماء كل مرة عشرون رأساً دفعة واحدة، فإذا إرتوت أرسلت الدفعة الثانية، وهكذا بداية من صلاة العصر حتى صلاة العشاء، أخذت الإبل أماكنها في المبيت وجهزت موائد العشاء للرعيان والملاحيق.

في صباح اليوم الثالث عشر ضرب للرعيان موعد للسقاية على مورد زرود، تجهزت القافلة للمسير ملئت قرب الماء. فالمورد التالي بعد قصيبا هي (ماء زرود) وهو على مسافة يومين من قصيبا. سارت القافلة وجهتها إلى زرود وقت القيلولة توقفت القافلة (للمضحى) بإحدى الرياض التي تفوح منها روائح الأعشاب نزلت الأحمال عن الإبل وتركت ترعى.

طعام الغداء والقهوة جهز قبل تحرك القافلة من قصيبا أنزلت القدور والصواني والقهوة والشاي معبأة (بالزمزميات) أواني مصنوعة من الصيني المطلي باللون البني وهي تشبه الثلاجات الصغيرة التي تحفظ البرودة والسخونة لكنها بدائية فهي مجرد وعاء لحفظ القهوة والشاي، وإذا كانت المسافة بعيدة يعاد تسخين القهوة أو الشاي.

تنـاولنا وجبة الغداء ثم صلينا الظهر والعصر قصراً وجمعاً، سارت القافلة بعد ذلك حوالي خمس ساعات بدأ النفود يظهر من بعيد، تبدلت طبيعة الأرض من أرض طينيـة إلى أرض رملية مليئة باشجار الغضا وفي أول مرتفع نزلت القافلة وأنزلت الأحمال ثم بدأ الجميع يجمعون الحطب من أشجار الغضا أوقدت النيران والطباخون والقهوجية يعدون طعام العشاء والقهوة والشاي.

وعلى ضوء النـار وفد أحد الأعراب ونحن جلوس و بعد السلام والتحيات بادره الوالد يسأله عن الأرض والربيع والإبل والمواشي أسئلة كثيرة، وأجابه على كل سؤال كنت منصتاً لهذه الاسئلة والأجوبة: الإبل، الأغنام، الربيع، الأرض طيبة، أسماء لم أعرفها، (سحيبه) مرة في أول الشتاء: عرفت أنها (سحابة) أنزلت مطراً على مكان معين يعرفه العقيلات وغيرهم من الأعراب.

تلك لغة ومصطلحات لم أكن أعرفها : الربلة ــ الحمض ــ الغضا ــ النصى ــ الارطاء، الرمث وهي أنواع من الأشجار والأعشاب التي تقبل عليها الإبل. والدي يسأل والبدوي يجيب بلهجته (الربلة ها الطول) النصي طول (الشبر) إلى غير ذلك من المصطلحات إلى أن قال (والله يذكرون) الجند قريب من حائل.. وعرفت أن الجند هو (الجراد) ومعنى ظهوره القضاء على تلك الأعشاب التي أسهب في ذكرها وحدد أماكنها.

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء تركنا الأعرابي مودعاً شاكراً للضيافة ولم ينس بفطنته أن يذكر أنه رأى ثلاث رعايا على مسافة ليست بعيدة منا في أحد المنخفضات هي بالطبع إبلنا.

كان الجو قد بدأ يميل إلى البرودة و يزداد الهواء شدة شيئاً فشيئاً حيث لطفت نسائمه من حرارة الجو، اخترت ركنا من الشراع (كومت كومة من التراب) جعلتـــــه وسادة أضع عليها طرف الفراش لتصبح مخدة، تلك

التعليمات تلقيتها من مرافقي في أول ليلة كنا في قصيبا عندما جمع لي بعض الأحجار ووضع عليها الفراش لتصبح مخدة أنام عليها، هذه هي أفرشة الصحراء، إما مجموعة من الحجارة أو كومة من التراب، ولاشك أن مخدة من التراب أكثر راحة ولو قليلاً من مخدة الحجارة.

والفراش عبارة عن طراحة من القماش محشوة بالصوف المأخوذ من جلد الأغنام فلم نكن نعرف حشو القطن حينئذ ولم تكن المخدة ضمن الفراش. ومن شدة التعب رحت في سبات عميق، لم أفق إلا على صوت يناديني: اصحى، فقد وجبت صلاة الفجر، صحوت من نومي وتوضأت ثم اتجهت إلى حيث الكثير من أفراد القافلة يؤدون صلاة السنة اقيمت الصلاة، وبعد أن فرغنا منها تناول الجميع افطاراً عبارة عن أقراص (الكليجا) وهي مصنوعة من الدقيق والسكر ومحشوة بالهيل والقرفة والسكر، وهي صناعة محلية تفنن في صناعتها بعض البيوت في مدينة بريدة.

في اليوم الرابع عشر، سارت القافلة قبيل شروق الشمس حيث كان الجو لطيفاً والإبل تتهادى على أرض النفود وفي أثناء حديث الوالد والعويسي في مقدمة القافلة صاح بهم عبد الله الحربي يقول هذه أرض (الضباء) الغزلان ولم يكمل كلامه إلا و يصدر صوت آخر من الوالد يقول (هذى جميلة ضبا) لم أعرف مايعني.

فسر لي مرافقي أن الجميلة تعني المجموعة من الضبا، اقتربنا أكثر بحيث نستطيع رؤيتها بوضوح. عندما اقتربنا منها أكثر بدأت تعدو مسرعة. شاهدت ضبياً صغيراً لم يتحرك من مكانه نزلت من راحلتي واتجهت إليه حتى إذا صرت على مسافة كبيرة مترين منه فإذا هو يقفز قفزة طويلة، ابتعد عني مسافة ثم رقد على الأرض. حاولت أن أتبعه سمعت الوالد بصوت عال يقول لايتعبك لن تستطيع اللحاق به، ركضت وراءه، ولكنه هذه المرة قفز كلمح البصر، عدت إلى راحلتي واعتليتها وسرت مع القافلة

وأنا بين مكذب ومصدق، مافعله بي هذا الضبي الصغير.

كان عبد الله الحربي وهو صياد ماهر قد ترك القافلة عدوا على راحلته وراء جميلة الضبا فسمعنا طلقات النار، اتجهت القافلة إلى حيث مصدر الطلقات وعلى مسافة بعيدة رأينا عبدالله يلوح لنا (ببندقيته) من بعيد عرفنا أنه اصطاد أحد الغزلان، وصلنا إليه وإذا هو قد اصطاد اثنين. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة صباحاً. وفي أثناء ذلك هبت عاصفة رملية وكانت الإبل لا تقوى على مجابهة الريح فاضطررنا إلى البقاء في أحد المرتفعات الرملية، وأنزلنا الأحمال ولم نستطع نصب الخيام، أخذت العاصفة تشتد جمعنا أكياس السكر والشاي والأحمال الأخرى وجعلناها ساتراً يقينا من لهيب الرمل. وقيدت الإبل بالحبال وتركت ترعى، لم نستطع عمل شيء حتى بدأت العاصفة تهدأ، واستطعنا نصب إحدى الخيام ثم أوقدنا النار لشي الغزلان وطهي الطعام وإعداد القهوة، وبعد أن فرغنا ظهرت أسراب الجراد حطت على الأمتعة وخشينا من أن يصل الجراد إلى أكياس السكر وتحدث بها أضراراً، حاولنا نصب خيمة أخرى ونجحنا في جمع أكياس السكر، ثم غطيناها بشمع سميك، هكذا بدأ العويسي يحمد ربه فبضاعته من السكر، ولو قدر للجراد من أن يحط على أكياس السكر لتناثرت حباته واختلطت بحبات الرمال التي طمست أعين الكثير منا حتى أن أبا يوسف وهو الذي بذل مجهوداً في حماية السكر أخذ يومين يعاني من أثر التراب في عينيه.

وأخيراً هدأت العاصفة في نحو الساعة الرابعة مساء أي بعد العصر، حملنا الإبل ثم سارت القافلة بعد هذا اليوم الذي قضيناه تحت رمال الصحراء وبعد رحلة منهكة طويلة.

وصلنا إلى أحد المنخفضات الرملية أرضها تميل إلى الاحمرار ورمالها ناعمة بعكس مبيتنا في الليلة السابقة. حطت القافلة قبل منتصف الليل

بقليل، وكانت الأرض مليئة بأشجار الرمث والنصى وهي ماتقبل الإبل على رعيه، واختيار هذا المكان رغم حاجتنا لتعويض المسافة التي فقدناها بسبب العاصفة له جانبان: الأول لراحتنا وراحة الإبل، ثم أن هذه المراعي الخصبة قد تعوض مافقدته الإبل من طعام. أنزلت الأحمال وتركت الإبل ترعى مع أحد الرعيان، كان القمر بدراً والسماء صافية، أكلنا من بقية لحم الغزالين وتناولنا القهوة والشاي ثم جلسنا للسمر.

كان الوالد رحمه الله حريصاً على أن يعطيني عريفات للأودية والشعاب والامواه والقرى المجاورة لها، سواء كانت هذه في طريقنا أو قريبة منه، كان يحدثني قبل هبوب العاصفة أننا في مسيرنا لو اتخذنا الشمال الغربي عندما تحركنا من قصيبا لكنا قد وصلنا إلى القواره، ولو سرنا من نفس المكان باتجاه الشمال الشرقي لوصلنا إلى مورد الأجفر.

الأجفر (الجفار) [1] :

جمع قلة لجفر وهي البئر الواسعة لم تطو واقعة بين فيد والخزيمية قال الزمخشري ماء لبني يربوع انتزعته منهم بنو جذيمة.

والجفار جمع ماء لبني تميم وتدعيه ضبه، وقيل الجفار موضع بين الكوفة والبصرة. ويوم الجفار من أيام العرب معلوم بين بكر بن وائل وتميم بن مر.

وهي البئر الواسعة القعر لم تطو يقول ياقوت ولا أدري أي جفر أراد الشاعر نصيب بقوله:

اما والذي حج الملبون بيته
وعظم أيام الذبائح والنحر

---

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٢ ص ١٤٤ ـــ ١٤٦.

لـقـد زادنــي للـجـفـر حـبـا وأهـلـه
لـيـال أقـامتهـن لـيـلـى عـلـى الجـفـر

القواره :

عيـون ونخـل كثير لعيسى بن جعفر تنزلها أهل البصرة إذا أرادوا المدينة من بطن الرمة وقيل ماء لبني يربوع.

تـلـك كـانـت أسماء مـوارد لم تـكـن على الطريق الذي سلكناه ولست أقطع هل الأجفر الذي عناه الشاعر، أم أنه لمواقع أخرى.

ثم وصـف لـي الـوالـد أيـضاً مورد لينة وهو لايبعد عن مورد زرود سوى مـرحـلـة واحـدة، وقـد قـيـل عنه [1] لينة موضع في بلاد نجد كثيرة الركى مـاؤهـا طـيـب وبـه حـوض الـسلطان ويقال إن به ثلاثمائة عين وهو مورد لبني غاضرة، قال الأشهب بن رميلة:

ولله دري أي نــظــرة ذي هـــوى
نــظــرة ودونــي لــيــنــة وكـثـيبهـا

وقال مضرس الأسدي:

لمــن الـديـار غـشـيتهـا بـالأثـمـد
بـصـفـاء لـيـنـة كـالحـمـام الركـد

أمـسـت مـسـاكـن كـل بـيـض بـراعـه
عـجـل تـروحـهـا وان لم تـطـرد

---

(١) معجم ياقوت (معجم البلدان) جـ ٥ ص ٢٩ ــ ٣٠.

صفراء عارية الا خارج رأسها
مثل المدق وأنفها كالمسرد

وسخان ساجية العيون خواذل
بحماد لينة كالنصارى السجد

يقول ياقوت: وقرأت في ديوان مضرس في تفسيره لهذا الشعر قال: لينة ماء لبني غاضرة يقال ان شياطين سليمان احتفروه وذلك أنه خرج من أرض بيت المقدس يريد اليمن فتغذى بلينة وهي أرض خشناء فعطش الناس وعز عليهم الماء فضحك شيطان كان واقفاً على رأس سليمان فقال له النبي سليمان: مالذي يضحكك فقال أضحك لعطش الناس وهم على لجة البحر فأمرهم سليمان فضربوا بعصيهم فانبطوا الماء. وقال زهير:

كأن رقبتها بعد الكرى اغتبقت
من طيب الراح لما يعد أن عشقاً

شج السقاه على ناجودها شبا
من ماء لينة لا طرقا ولا رنقا

وإذا كانت قصيبا عندما وصلنا إليها لايوجد فيها سوى عدد قليل من بيوت الطين، عدا قصر الأمير وقصر عيسى الرميح التي تتميز من حيث الحجم والمساحة فان قصيبا الآن قد أخذت حظها من العمران الحديث إلى جانب الاحتفاظ بالبيوت القديمة.

وكذلك لينة أصبحت الآن مدينة كبيرة فيها إلى جانب قصر الإمارة: والمالية فروع من الوزارات المختلفة وهي تتبع لإمارة حائل إدارياً.

هذا هو اليوم الخامس عشر من شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ من رحلتنا، وفي صباحه الباكر سارت القافلة باتجاه مورد زرود الأرض مليئة بخيرات

الله من العشب، الإبل ترعى وهي سائرة وبعد أن قطعنا مسافة لابأس بها (ضحينا). أنزلت الزمزميات وفيها القهوة والشاي، تركت الإبل مع أحد الخويا ترعى بأحمالها وبعد أن قضينا فترة من الراحة واصلنا المسير. الوالد والعويسي ينظران (بالمكبرات) للتأكد من أنهما يسيران بالاتجاه الصحيح إلى المورد، فالخبرة والمعرفة بالدروب اكتسبها العقيلات من خلال سفراتهم الكثيرة والتعرف على طبيعة الأرض في كل مكان وأرض يمرون منها.

تأكد لنا جميعاً حينما رأينا المورد بالعين المجردة حاثين الإبل على المسير للوصول إلى المورد، فتقدم الركب عبد الله الحربي وعبد العزيز الشقيران لترتيب السقيا، فالموارد تخضع لتقاليد وأصول، هكذا عرفت.

الفصل الثاني

المورد الثاني
(زرود)

المورد يضج بالناس، الأعراب منتشرون حول البئر، إبل تسقى وأخرى تركت المورد إلى الفلاة، وصلنا إلى المورد مابين صلاة الظهر والعصر، ونصبنا الخيام جنوبي البئر.

ومورد زرود مشهور ومعروف بطريق الحاج القادم من مكة المكرمة إلى العراق زاره أكثر الرحالة العرب وقال عنه ياقوت[1]: رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج. وقال ابن الكلبي عن الشرقي زرود والشفرة والربدة نبات يترتب بين قانية ابن فهليل بن رخام بن عقيل أخي عوض بن ايرم بن سام بن نوح عليه السلام وتسمى زرود العتيقة قالوا أول الرمال الشيحة ــ رمل الشقيق ويوم زرود من أيام العرب مشهور بين بني تغلب وبني يربوع.

يروى أن الرشيد حج في بعض الأعوام فلما تركه تمثل بقول الشاعر:

أقول وقد جزنا زرود عشية
وراحت مطايانا تؤم بنا نجدا

على أهل بغداد السلام فإنني
ازيد بسيري عن بلادهم بعدا

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٣ ص ١٣٩.

وقال مهيار :

ولـقـد أحـن إلـى زرود وطـيـنـتـي
مـن غير مـاجـبـلـت عـلـيـه زرود

ويـشـوقـني عـجـب الحجاز وقد دنا
ريـف الـعـراق وظـلـه المـمـدود

ويـغـرد الـشـادي فـلا يهتز بـي
ويـنـال فـي الـسـابـق الـغـريـد

مـاذاك إلا أن أقـمـار الحـمـى
أفـلاكـهـن إذا طـلـعـن الـبـيـد

وحول المورد تكثر الأسئلة، فقد حضر إلى خيامنا بعض الأعراب يسألون عن أخبار الطريق واتجاهنا والمراعي والجند.

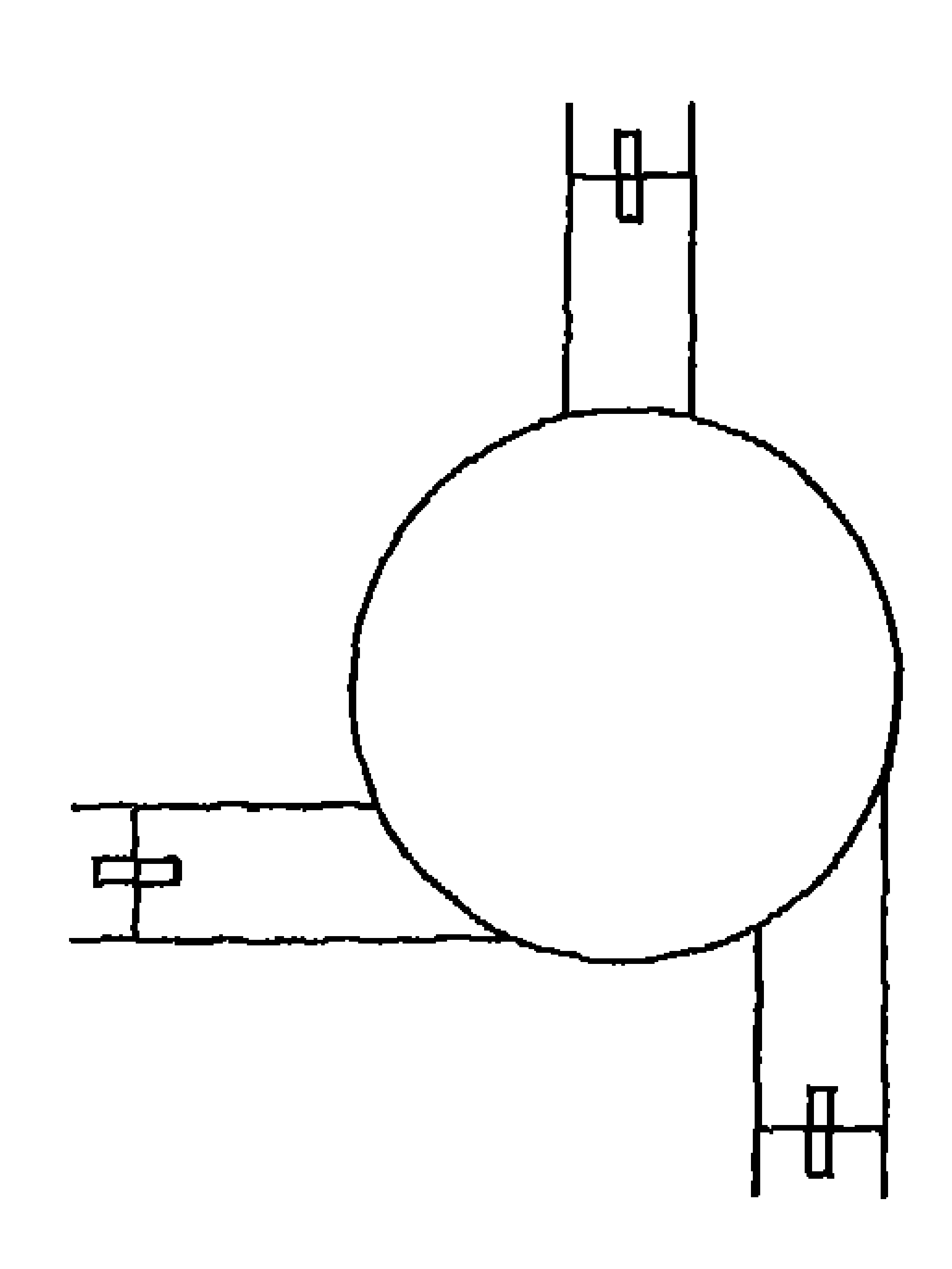
والجند هو (الجراد). أرسل أمير القبيلة أحد أبنائه للترحيب بالضيوف كعادتهم العربية، فأعدت القهوة وبعد قليل وصل الأمير ومعه حاشيته تناولوا القهوة والشاي، ثم بدأت معه ترتيبات السقياء.

البئر مزدحمة بالسقياء، ويقام عليها ثلاث مقامات (المقام) عبارة عن قطعة من الخشب مقسمة إلى شقتين يدخل بينهما قضيب من الحديد يوضع عليه (المحالة) أو البكرة ثم يوضع الدلو على البكرة بعد ربطه بحبل سميك وربط نهايته على (مسامة) الجمل ويقف رجل على المقام ينزل الدلو حتى يمتلىء، وعندئذ يصيح هذا الواقف إلى راكب الجمل بصوت عال: صدر يا (مليحان) إذا كان لون الجمل أملح يسير الجمل حتى نهاية الحبل المربوط في الدلو ويلتقفه الواقف ويصيح بصوت عال: عود يامليحان ثم يصبه في حوض تشرب منه الإبل، والحوض مصنوع من جلود الإبل ومركب على

أخشاب على شكل أرجل، يشبه إلى حد كبير (الترابيزة).

وقد قيل في الأمثال العامية ـ كم فاطر شربت بجلد حوار ـ والمعنى أن هذا الحوض قد صنع من جلد (حوار) صغير الإبل وتشرب منه (الفاطر) أنثى الإبل الكبيرة وهذا المثل يصور حكمة الموت والحياة.

وأكثرية الآبار المحفورة في الصحراء مثلثة الشكل مطوية بالحجارة وبقدر اتساع فوهة البئر يتم نصب المقامات عليه مثال، الشكل الآتي:



عند ورودنا إلى زرود كانت البئر منصوبة عليها ثلاث مقامات، وعليها زحام شديد لكننا استأذنا في نصب مقام رابع. بدأت سقيا جمال الثاية، وترتب سقيا الرعايا قبل صلاة العصر، انتهت السقاية. وصل فلاح بن وطبان المسئول عن رعايانا ورتبت معه طريقة السقياء بحيث يرد على البئر عشرون رأساً من الإبل كل ساعتين، أما رعايا العويسي فقد أرسل لها أن تتأخر إلى الغد.

أثناء وجودنا على الماء سمعت ترحيباً بقادم، حضر أحد الخويا قادماً

من البئر يقول للوالد إن محمد العبد العزيز المديفر وعبد العزيز البطين، قادمان من الجوف وهما على الماء، فهبوا جميعاً إلى حيث الوافدين يرحبون بهما، تركا ابلهما يسقيها الرعيان وحضرا إلى الخيام لتناول القهوة والشاي، وبدأت الأسئلة: الطريق إلى المراعي ــ المياه ــ تلك أسئلة لابد من الإجابة عليها حتى يطمئن المسافر، وأسئلة أخرى عن أسعار السكر والشاي والهيل، والقهوة، والمواد الغذائية وغيرها.

غابت الشمس، واشعلت نيران بيوت القبيلة، وجهز بيت الأمير لاستقبال ضيوفه، فقد دعا جميع أفراد القافلة إلى تناول العشاء. ومن الطبيعي أن ضيوف الضيوف يحضرون معهم، وهذه عادة عربية أصيلة لازالت والحمد لله قائمة في أنحاء الجزيرة العربية.

ذهبنا جميعاً إلى بيت الأمير تلبية للدعوة، وكان البيت كبيراً ومقاماً على سبعة أعمدة وهو منسوج من الصوف الأسود، والأرض مفروشة بالسجاد، وهناك حفرة كبيرة فيها النار وحولها الدلال والأباريق، ووسط هذه الحفرة جلس شخص يحرك النار و يصب من هذه الدلة ليتذوقها ثم يصيح الأمير بصوت عالٍ: (قهوة) عند ذلك يتصايح معه خوياه يرددون (قهوة) فيبرز شخص واحد يمسك الدلة بيده اليسرى والفناجيل بيده اليمنى، و يتقدم إلى الأمير الذي يتنازل بدوره عنه إلى أحد كبار الجالسين.

بعد تناول القهوة والشاي حضر شخص وتقدم إلى الأمير وهمس في أذنه، فقام الأمير قائلاً تفضلوا العشاء جاهز، وتقدم أحد الأشخاص إلى النار لاطفائها، وبدأنا الأكل في الظلام الدامس، ولم أستطع كبح جماح فضولي، فسألت أقرب واحد لي لماذا يطفئون النار؟ فرد بصوت خفيف بعد الأكل. وانتهينا من الأكل بهمهمة وصدر صوت من الوالد يقول «أنعم الله عليك» وقامت المجموعة كلها دفعة واحدة. وخرجنا من البيت، وفي الظلام لم أكن أدري من الذي كان بجانبي لكنني عرفته بعد ذلك، كان حمد

الشبعان أحد خويا العويسي بادرني بقوله تعال يا إبراهيم، أنت سألت عن سبب إطفاء النار، هذه عادة قبلية قديمة[1] يقصد به أن الضيف يأكل على حريته ودون أن يراه أحد، أما عادة الهمهمة التي سمعتها فهي أيضاً عادة بحيث تكون تنبيهاً للجميع بالقيام والانتهاء من الأكل.

وعرفت بعد ذلك عن هذه العادة الكثير، وقد استطاع جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ــ رحمه الله ــ أن يقضي على هذه العادة عندما دعا أهل الرياض إلى مأدبة عشاء بعد انتهائه من بناء قصر المربع، وبعد أن قدمت موائد العشاء وانتصف الناس بالأكل همهم أحد الجالسين، لكن عبدالعزيز نهره قائلاً: «والله العظيم ما أحد يقوم من الأكل إلا بعد أن يشبع. هذه عادة قديمة ومن الجائز أن يكون أحد من الحاضرين جائعاً ويتسبب أحد الناس بحرمانه من الأكل» وعرفت بعد ذلك كلمة (سعودية) بمعنى أن الذي يشبع يكف عن الأكل وينتظر حتى يفرغ الباقون من طعامهم.

عدنا إلى الخيام وكان القمر بدراً، فهذه هي الليلة السادسة عشرة وأصوات الأهازيج على المورد والحداء والذي يردده الرعاة يضفي على المكان إحساساً بالطمأنينة، جلسنا حول النار وراح الوالد ومن معه في أحاديث حول رحلات العقيلات وسفراتهم والشجاعة وأنواع الإبل لكنني لم أستطع مسايرة رفقاء الرحلة إذ رحت في نوم عميق.

صحوت في الصباح الباكر على صوت عبد العزيز الشقيران وهو يوقظني قبل طلوع الشمس لم أتأخر في النوم هذا اليوم. توضأت للصلاة، ثم تناولت القهوة والشاي وبعض من (الكليجاء)، شاهدت الوالد حول البئر

---

(١) وهي إحدى علامات الكرم والأريحية عند عرب المملكة، وخير مثال ما تناقلته المصادر العربية القديمة منذ العصر الجاهلي عن هذا الكرم الأصيل. انظر: الأغاني لأبو الفرج الأصفهاني، وتاريخ آدات اللغة العربية لجورجي زيدان.

هو والعويسي، تركت الخيام إلى حيث يقفان، وعلى المورد وجدتها يساومان أحد الأعراب على ستة من الخراف، وشيء من السمن، كان سعر الخروف الواحد يومذاك سبعة عشر ريالاً سعودياً، و(عكة) وعاء السمن به حوالي خمسة كيلو جرامات من السمن البلدي اشتريناها بستة ريالات، ألقيت تحية الصباح على الوالد وسألته عن محمد المديفر وعبد العزيز البطين، قال لي لقد سافرا فجر اليوم إلى بريدة.

شربت إبل العويسي ولم يبق سوى التجهيز لمواصلة الرحلة، وحسبت الأيام التي قطعناها من بريدة حتى زرود وإذا هي ستة أيام، ومورد زرود هو ثاني مورد نصله بعد قصيبا، وقد قال عنه الرحالة ابن بطوطة[1]: «زرود بسيط من الأرض فيه رمال، وبه دور صغار وهناك آبار مياهها ليست بالعذبة». وفي رحلتنا هذه لم نجد بها سوى بئر واحدة وفيه آثار لبيوت قديمة لكن الرمال طمست معالمها ولم نجد إلا بيوت البدو.

قام الخويا بتعبئة قرب الماء من البئر وفي هذه الأثناء حضر أمير القبيلة وتبودلت الهدايا كعادة العرب، وتجهزت القافلة للرحيل، غادرنا المورد في نحو الساعة التاسعة صباحاً، ولازلنا في النفود الصغير، وقد فهمت من خلال أحاديث العويسي والوالد أن أقرب مورد بعد زرود هو الحيانية وسط النفود الكبير، وفي الطريق يوجد مصانع لحفظ الماء في الحجرة بعد أن نقطع طريق الحاج القادم من العراق إلى المدينة وهو مايعرف (بالمنقى) أي الممهد الذي قيل أن زبيدة زوجة هارون الرشيد قد مهدته وحفرت حوله الكثير من المصانع لمياه الأمطار.

تحدد سفرنا باتجاه الشمال الغربي وكانت الأرض مليئة بأشجار الأرطاء النصى ــ الرمث، الإبل ترعي من العشب وهي تسير (ضحينا) بأحد

---

(١) تحفة النظار لابن بطوطة جـ ١ ص ١٩٢.

الكثبان انزلنا الأحمال عن الإبل فهذه المراعي لا تعوض، فأمامنا الحجرة قليلة المراعي وأرضها صلبة وقد عرف الوالد من المسافرين أن أرضها غير صالحة للرعي، وهذا سبب بقائنا في هذه الأرض ولم نقطع سوى مسافة قليلة من المورد الثاني.

بتنا ليلتنا وفي الصباح تأخرنا عن المسير حتى مابعد طلوع الشمس، وكانت الإبل في مراعيها وجمال الشاية تركت مع أحد الخويا للرعي، أحضرت وتجهزت القافلة للمسير، وكلما وطأنا أرضاً فيها مراع توقفت القافلة عن المسير، وأنزلت زمزميات القهوة والشاي و وجبة خفيفة ثم مواصلة السير، وقبل صلاة العصر وصلنا إلى أرض عشبها قليل وأشجارها يابسة، إذاً لابد من مواصلة السير بعيداً عن هذه الأرض. عند ذلك تأكد لي ماكان البدوي يعني بقوله هناك (خطيطة) يعني سحابة نزلت على أرض وأرض أخرى لم تأخذ حظها من المطر.

واصلت القافلة مسيرتها ولم تتوقف إلا لصلاة المغرب، وكان الظلام دامساً ولم يظهر القمر بعد، لكن الإبل بدأت ترخي رقابها إلى الأرض، فقد وجدت المرعى وهو ماتبحث عنه، عندئذ توقفت القافلة.

في أثناء توقف القافلة حضر إلينا الراعي (فلاح) المسئول عن الرعايا، واقترح أن نبيت ليلتنا هذه، فالأرض كثيرة المراعي وأمامنا الحجرة ومراعيها قليلة، ولاشك أن فلاحاً بنى كلامه على الأسئلة العديدة التي عرف جوابها من الرعاة الذين قابلهم، فلا بأس من المبيت.

وفي الصباح أطلقت (عقل) إبل الحملة وتركت ترعى مع أحد الخويا، فالأرض طيبة وتستحق الإقامة يوماً آخر، وكان هذا رأي الوالد والعويسي، الذي وافقه. ومن طبيعتي أن أنتقل من مكان إلى آخر لأتعرف على أنواع الأشجار وأجمع الحطب وهي تسلية، قمت بجمع بعض الأعواد وأحضرتها

معي، ثم وضعتها على النار تناولت قليلاً من الشاي وبعض الكعك (الكليجا).

بدأت أعد الأيام التي مضت علينا منذ أن غادرنا بريدة، وإذا هي ثلاثة أيام بما فيها الإقامة في قصيبا، وثلاثة إلى زرود وأربعة منذ أن تحركنا من زرود، إذ فالمجموع عشرة أيام، في اليوم الخامس تحركنا باتجاه الحجرة ولابد من اجتيازها خلال هذا اليوم.

والحجرة : الأرض الصلبة في وسطها بعض الأكمات والجبال الصغيرة المتناثرة والشعاب الصغيرة وهي الفاصل مابين النفود الصغير والنفود الكبير، وفي وسطها قطعنا طريق الحاج القادم من العراق إلى المدينة المنورة طريقاً معبداً يقال له (المنقى) حوله يوجد مصانع عرفت أنها لتجميع مياه الأمطار، لكننا لم نجد فيها مياه.

ثم قطعنا مسافة خمس ساعات وكات الشمس حارة والأرض جبلية وفيها بعض الشعاب من الرمال الناعمة وبعض الأودية الصغيرة، وقد توقفت القافلة وسمعتهم يقولون هذه أرض المداحل وسألت ماهي المداحل عرفت أن المسافر يحفر حفرة في الأرض ويجد فيها الماء وهي متوفرة من مياه الأمطار. الخويا يحفرون الأرض بحثاً عن المياه لكن الأرض كانت جافة فذهبت محاولاتهم أدراج الرياح وهكذا تركنا البحث عن المياه لمواصلة الرحلة.

المتاعب

بعد أن قطعنا مسافة لابأس بها تلبدت السماء بالرياح القادمة إلينا، وكانت عاصفة شديدة واتجهنا بسرعة إلى إناخة الجمال وإنزال حمولتها، جمع الخويا أكياس السكر والشاي ثم وضعوا عليها أكياس القهوة والهيل وغطوه بالأشرعة، واتخذنا منها ملجأ يقينا من العاصفة التي بدأت تشتد، وجميع الأفراد كانوا تحت الأشرعة دون حراك.

اتخذت لنفسي ساتراً من أكياس القهوة وتغطيت بعباءة محاولاً النوم، لكن عبثاً ماحاولت، فزئير العاصفة شديد، وبعد ساعة أو أكثر قليلاً هدأت العاصفة وخرج الرجال من مخابئهم مابين الأكياس، وبدأوا ينفضون ماعلق بهم من أتربة، تفرق الخويا يبحثون عن الإبل، ووجدوها متفرقة، تمكنوا من جمعها وقيدوها بالحبال ماعدا جملاً للعويسي شذ عن الإبل لم يجدوه، أخذت العاصفة تهدأ والرؤية تتضح، فذهب عبد الله الحربي ومعه بعض الخويا يبحثون عن الجمل الضائع.

وبعد عناء وجدوه قد برك حول شجرة كبيرة، ربما هو الآخر قد أعيته زمجرة العاصفة فراح يبحث عن ساتر يقيه هذه الرمال المتحركة، فاقتادوه ثم بدأنا نستعد للرحيل لتعويض مافاتنا من الوقت، ولم نتوقف إلا لصلاتي المغرب والعشاء قصراً.

تبدلت الأرض من رمال ناعمة إلى أرض سوداء فيها حجارة وأكمات، عرفت أن هذه هي الحجرة أو الحرة كما تعرف جغرافياً.

جاء في معجم ياقوت: جزيرة العرب حددت في خمسة أقسام هي :

تهامة ــ الحجاز ــ نجد ــ العروض ــ اليمن[1]، و يقول:

أجمع العلماء على أن جبال الحجاز سميت بهذا الأسم لأنها تحجز بين تهامة ونجد، فمكة تهامية والمدينة حجازية، وحد الحجاز من معدن النقرة إلى المدينة فنصف المدينة حجازي ونصفها تهامي.

وعن إبراهيم الحربي أنه قال: تبوك وفلسطين من الحجاز. وقال أبو المنذر هشام بن أبي النضر الكلبي في كتاب افتراق العرب: الحجاز مابين جبلى طي إلى طريق العراق لمن يريد مكة سمي حجازاً لأنه حجز بين الغور والشام و بين السراة ونجد.

فصار ماخلف الجبل في غربية إلى أسياف البحر من بلاد الأشعر بن وعك وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وغار من أرضها غور تهامة وصار مادون الجبل في شرقيه صحاري نجد إلى أطراف العراق.

قال أبو المنذر حدثني أبو مكين محمد بن جعفر بن الوليد عن أبيه عن سعيد بن المسيب قال أن الله تعالى لما خلق الأرض مادت فضربها بهذا الجبل يعني السراة وهو أعظم جبال العرب وأذكرها فإنه أقبل من ثغرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام.

فسمته العرب حجازاً لأنه حجز بين الغور وهو هابط و بين نجد وهو ظاهر وتكونت في شرقيه الظاهر حجرات وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها يطوف بكل قطعة منها الطائف وحواليها الرمل.

تلك هي الحجرة التي نسير فيها الآن.

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٢١٨ ــ ٢٢٠.

وطرق هذه الأرض متشعبة، وأوديتها صغيرة، كما أن بها منخفضات ومرتفعات، لذا فان السير فيها يكون بطيئاً، وقد أرخى الليل سكونه، وأخذت الجمال تتعثر في سيرها، ولكن لابد لنا من المشي.

نزلنا أحد المنخفضات للمبيت، وكانت ليلة لا أنساها، وضعت الفراش على الأرض، كلها حجارة صلبة تخرج من الفراش كأنها المسامير، وكان التعب شديداً لكنني أحسست بلذة في النوم رغم الحجارة التي تركت علامات على جسمي رأيتها في الصباح.

تأخرت القافلة عن المسير على غير عادتها، والأرض لا تنبىء عن وجود مراعٍ، جاء إلينا الراعي فلاح ولهجته (العنزية) بادر والدي بسؤال: (لقيتوا الماء؟) هل وجدتوا مياه، وكان الوالد يلومه بنظرات موجهة إليه كمن يؤنبه على هذا السؤال، لايريد أن يشغلني بهموم حملها هو ورفاق الرحلة طوال الأيام الماضية.

نحن الآن في اليوم العشرين، وقد مضى على تحركنا من زرود خمسة أيام، ومن لهجة الراعي عرفت أن الماء على وشك الانتهاء، وأن بحثهم عن الماء في اليوم الماضي كان لحاجة الإبل إليه لأنها عطشى، وقد قارب الماء الذي معنا على الانتهاء، ومياهها (مرة) تحركت القافلة وحددوا اتجاهاً للسير وتفرق الوالد والعويسي وعبد الله الحربي على مطاياهم يبحثون عن الماء في مصانع معروفة في هذه الأماكن، وراح بحثهم سدى، فواصلنا السير، ولم نتوقف كالعادة وقت القيلولة، كانت الشمس ملتهبة والأرض سوداء من كل شيء. والإحساس بالخطر بدأ يزداد فكم راح ضحية العطش الكثير في هذه الصحراء، وازداد إقبالي على المياه ومرافقي ينهرني.

بدأت الأرض تتبدل بأكمات صغيرة وجبال غير مرتفعة، وبعض الرياض قد ظهرت : أشجار الشيخ والحمض والرمث كنا نحمل من المياه

ست قرب، وكان مع العويسي نفس العدد، نفذ أكثرها ولم يبق فيها إلا القليل، وأصبحت توضع على مقربة من الوالد في شبه تحديد لما نشربه من المياه، أقمنا ليلتنا بقرب أحد المرتفعات، وكانت ليلة لا أنساها، لم أستطع النوم والخطر يقترب منا فلا خبره لي في الصحراء، وتقنين شرب الماء أضفى علينا صبغة الخوف، أخذت في هذه الليلة أتساءل، هل هذه هي النهاية فلا وضوء، ولا شرب إلا بحدود.

في اليوم الحادي والعشرين تحركت القافلة قبل صلاة الفجر، فالسير في هذا الوقت يبعدنا عن حرارة الجو و يوفر شرب المياه، توقفنا لصلاة الفجر ونزلت القهوة والشاي، كانت نظراتي إلى الوالد وهو في حيرة أتراه يعاتب نفسه؟ كيف يأخذني إلى الموت؟ أم تراه يحس إحساساً آخر؟ بأن على أن أتعلم. فالحياة كفاح، ولابد من أن أتذوق حلوها ومرها، شربت فنجالاً من الشاي، ولم أطلب غيره، لكن الوالد أمر القهوجي قائلاً: صب له واحد، شربت الفنجال الآخر على غير رضا، لكنني علمت فيما بعد من مرافقي أن الشاي يقلل من العطش.

تحركت القافلة بعد أن حدد لنا أيضاً المسار، وتفرق ثلاثتهم إلى حيث البحث عن المياه في هذه المنطقة، وبعد مسيرة ساعتين تقريباً سمعنا طلقاً نارياً اتجهت أبصارنا إلى حيث مصدره، سمعت صوت عبد العزيز الشقيران وأبي يوسف يهللان (لقوا الماء) أي وجدوا الماء.

اتجهنا إلى حيث مصدر الطلق الناري تاركين الإبل تجري بأقصى سرعة، فوصلنا إلى حيث عبد الله الحربي يقف حول أحد الرجوم — حجارة مرصوصة على بعضها مكونة علامة على أكمة، وجدناه يلوح ببندقيته فرحاً، فقد وجد مصنعاً للماء بين الحجارة في شب بركة كبيرة من المياة مغطاة بحجارة، وبسرعة نقلنا الحجارة وكانت مياه صافية يعلوها بعض القش وأوراق الأشجار، حضر الوالد والعويسي وجاءت الثاية بأحمالها ونزلنا

على هذا المصنع، بعد أن غسلنا القرب كلها من بقايا مياه زرود المالحة، ولم يطمئن الجميع إلا بعد أن تم تعبئة القرب جميعها، فنصبنا الخيام وبالقرب منا شاهدنا قطعاناً من الأغنام، فذهب أحد المرافقين واشترى منها أربعة من الخراف، وجاء يقودها معه، راعي الأغنام، ذبحنا اثنين منها وبدأنا في تجهيز الطعام، وهكذا انبسطت أسارير الجميع، فقد زال شبح الموت الذي خيم فوقنا بضعة أيام عصيبة.

حضر إلينا رعيان الإبل وأكلوا معنا، وكان احتفالاً وشكراً لله على نعمه وبدأ الرعيان يمتدحون مراعي هذه الأرض، لكن الجمال مضى عليها ستة أيام عن الماء والمورد التالي هو الحيانية في وسط النفود الكبير، ويبعد ثلاث مراحل يومين بليلة واحدة، وأقمنا يوماً حول هذا المصنع من المياه.

جاء الليل وفي الفراش بدأت أستعيد ذكريات يالأيام الماضية، هذه هي الليلة الثانية عشر من مغادرتنا بريدة، سيل من الذكريات، كان الراعي فلاح وهو يسأل الوالد عن الماء ونظراته إليه، يعني أن عدم وجود الماء معناه الموت ووجوده معناه الحياة. ثم تذكرت والدتي واخوتي وجدتي وعماتي، إن الفراق يجعل الإنسان يستعيد ذكريات الماضي، وهناك أشياء فرضت نفسها على تفكيري في هذه الليلة: السفر في حد ذاته اتقلب في فراشي، وأفراد القافلة ساهرون حول النار، أحاديثهم عن السفر والرحلات، قفزت من فراشي كمن يحاول طرد هذه المخاوف، واقتربت من النار، والوالد يسأل (ماجاك نوم)، تناولت بعض القهوة والشاي وجلست أستمع إلى أحاديثهم لعلي أستطيع طرد تلك الهواجس، ثم عدت إلى فراشي بعد هذه السهرة ورحت في سبات عميق.

في الصباح الباكر تحركت القافلة، وتركنا هذه الأرض الطينية ذات الأكمات الصغيرة المتباعدة، ورياض تفوح منها رائحة العشب، الرمث

الشيح، إلى مورد الحيانية وسط النفود بالكبير. كانت الإبل تقطف من الأشجار بسرعة عجيبة كأنها تودع هذا النوع من المرعى، المسافة أمامنا كبيرة، وفيها مخاطر هبوب عواصف رملية تبعدنا عن الاتجاه الصحيح إلى هذا المورد الذي يقودنا إليه الوالد.

كانت الإبل عطشى منذ مورد زرود، فالمياه التي وجدناها لا تكفي إلا لشرب أفراد القافلة فقط، واتفق مع الرعيان على أن يكون مورد الإبل إلى الحيانية ليلة الرابع والعشرون من الشهر، ودعنا هذه الأرض حوالي الظهر، سار أمامنا عبد الله الحربي فهو مولع بالصيد والنفود لايخلو من الضبا (الغزلان) مرتفعات ومنخفضات نسير فيها، الإبل تسير بسرعة لم نتوقف للمضحى كالعادة، صوت طلق ناري وثان وثالث ورابع، تصايح الرجال يقولون (صاد الرجال)، يقصدون عبد الله الحربي، اقتربنا منه وهو يلوح ببندقيته لقد اصطاد ثلاثة من الغزلان، توقفت القافلة أوقدنا النيران، نزلت الأحمال ثم قيدت الإبل وتركت للرعي، تناولنا طعام الغداء وصلينا الظهر والعصر قصراً، سارت القافلة ولم تتوقف إلا لصلاة المغرب والعشاء تناولنا القهوة والشاي، الظلام دامس وسكون الليل يوحي بالوحشة، لكن الحداء والغناء أوحيا إلى بالسكون، وبدأت أردد معهم الغناء :

يافاطري وإن جفاك منيف
تردين عذفا على ليله

عند الجبيلي يطيب الكيف
وانتي تريحين باشعيله

أسأل مرافقي من هو منيف، يقول: هو صاحب مورد عذفا، وعذفا مورد آخر بعده حداء آخر وأغنية أخرى:

يــا الله عــلــى كــور مــنــجــوبــه
مــن شــايــابــات المحــاقــيــبــي

أحــلــى مــن الهــرش وركــوبــه
بــأوســاط زمــل المــعــازيــبــي

وكانت القافلة تسير من مرتفع إلى منخفض، أثناء الظلام، بيد أن النجوم ساطعة وحدد الوالد نجماً يسير على هداه، قائلاً نحن الآن بعد منتصف الليل، وبدأ القمر يظهر ويبدد هذا الظلام.

كنت أتخيل أشياء سوداء في هذا الظلام، وبعد ظهور القمر عرفت أنها أشجار الغضا الكبيرة، سرنا قليلاً واختار الوالد أحد الأراضي السهله مكاناً للنزول والراحة أنيخت الجمال وأنزلت الأحمال وضعت فراشي على الأرض ثم كومت كومة من الرمل كمخدة ورحت في نوم عميق، ولم أفق إلا على صوت من يصحيني من النوم، فتقلبت في فراشي ولم أفق، صاح صوت آخر ــ هو الوالد ــ فأفقت من نومي لأجد أفراد القافلة وقد حملوا الأحمال والإبل واقفة، ولم يبق على الأرض سواي، وفراشي والدلال والأباريق على النار، توضأت ثم صليت الفجر بسرعة، وتناولت بعض الفطور من أقراص (الكليجا) وشربت فنجالاً من القهوة وآخر من الشاي، مؤنباً نفسي على هذا التأخير في النوم، وعلى عجلة حملت فراشي على راحلتي والقهوجي يضع ماتبقى من الشاي والقهوة في الزمزميات وحملها على جمال الثاية. ثم تحركت القافلة كان والدي ــ رحمه الله ــ يلهبني بنظراته، يلومني على هذا التأخير وأنا أحاول أن أنظر إليه معتذراً، واقتربت براحلتي من راحلته وابتسم كمن يقول: قبلت العذر.

قبل الظهر رأينا أشباحاً تتحرك، فنظر إليها الوالد بالمكبر وقال: هذه رعايا من الإبل قربنا منها أكثر، فإذا هي رعايانا وإذا الراعي فلاح يخرج

إلينا من أحد الأشجار الغضا برأسه وشعره الطويل، عندئذ اطمأن الجميع إلى أنهم يسيرون نحو المورد. ضحينا بجوار الإبل، وتركنا جمال الثاية ترعى بأحمالها والطباخون يعدون الغداء لأفراد القافلة، والرعيان تغدينا سوياً ثم افترقنا إلى لقاء في المورد.

واصلت القافلة سيرها، ولم تتوقف إلا لصلاة المغرب والعشاء، واستمرينا في المسير حتى قرب الفجر، توقفنا على أحد المنخفضات لفترة راحة قصيرة، وألقيت بنفسي على الأرض ورحت في نوم عميق، ولم أنتبه إلا على صوت عبد العزيز الشقيران يصحيني، أفقت متأخراً مثلما حدث في اليوم السابق، لكن نظرات الوالد هذه المرة كانت أقل، وليس فيها تأنيب. تحركت القافلة بعد طلوع الشمس بنحو الساعة أو أكثر، لا أدري، لكنني رأيت على البعد أشباحاً تتحرك، وتوضحت الرؤية، وإذا هي أغنام وإبل، لابد أنها صادرة من المورد.

المورد الثالث
الحيانية

هذا هو اليوم الثالث والعشرون من شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ اليوم الثامن من تحركنا من مورد زرود الإبل عطشى وبدأت تجد بالمسير تاركة الرعى، فهي تحتاج إلى الماء أكثر من الأكل في حين بدأت أرى علامات من الحجارة موضوعة على رؤوس بعض الكثبان، تدل على المورد. من أين جاءت هذه الحجارة وسط هذا النفود الكبير؟ لا أدري، المورد في منخفض سحيق من الأرض بين كثبان الرمال العالية، بيوت الأعراب كثيرة حول المورد، اخترنا جانباً سهلاً من الأرض وبعض الإبل تجري مسرعة إلى المورد ولم يستطع الرعيان كبح جماحها توقفت حول البئر تزاحم الإبل الأخرى الواردة عليه والرعيان يحاولون قمعها، لكن العرب الموجودين على البئر معروفون بالكرم والشجاعة قدروا مدى حاجة الأبل إلى المياه ولم يحاولوا منعها وإنما بدأوا يساعدون الخويا على نصب مقام على البئر إلى جانب مقاماتهم الأربعة في محاولة للمساعدة على السقياء.

كانت جمال الشاية بمجرد أن يُرمى الحمل عن ظهورها حتى تجري مسرعة هي الأخرى إلى الماء. قام الخويا بنصب الخيام وإعداد القهوة والشاي وإعداد طعام الغداء، وكعادة العرب حضر بعض الأفراد إلى حيث خيامنا في مقدمتهم رجل عرف نفسه باسم فلاح، وسلم على الجالسين وقال إنه ابن أمير القبيلة من شمر مرحباً بالضيوف وعارضاً دعوة والده على العشاء، فالغداء ليس وليمة في عرف القبائل، وإنما العشاء الوجبة الخاصة بالضيوف، ووافق الجميع على قبول الدعوة.

بعد أن تناول الزائرون القهوة والشاي، ودعوا إلى حيث لقاء على العشاء في بيت الأمير، وبعد أن تم ترتيب السقياء إلى غير ذلك.

نصب المقام على البئر للسقياء، وكان عمق البئر ــ كما عرفت ــ خمسة وثلاثين بوعاً. البوع يساوي (متراً ونصف) أو يزيد قليلاً، وكانت المياه عذبة ومن حسن حظنا أن أكثرية الورد قد صدرت وأن انتظار الورد الآخر لايأتي إلا بعد يومين شربت الإبل (عطنت) أي بركت حول البئر تأخذ قسطاً من الراحة، ثم تعود لتشرب ثانية والخويا ينزلون الدلو و يصبون في الأحواض كلما فرغت من الماء، ثم نصب مقام آخر استعداداً لورود الرعايا التي تنتظر وصولها هذه الليلة.

مر هذا اليوم راحة لأفراد القافلة، وجاء المساء، فذهبنا مشياً إلى حيث بيت الأمير وهو بيت من الشعر الأسود مقام على خمسة أعمدة في وسطه أرض محفورة تشبه (الوجار) المكان المعد لصنع القهوة والشاي، وكان الأمير جالساً أمام النار يوقد و يعد القهوة بنفسه، فرشت الأرض بالسجاجيد ووضعت الأشدة فوقها يتكىء عليها كبار القوم، جلس الجميع حلقة حول النار والأمير يتصبب عرقاً من أثر النار، وكلما جهز (دلة) أمر على خويه بقوله (صب القهوة ياولد)، يدير القهوة وهو واقف، والدلة بيده اليسرى والفناجيل باليد اليمنى، وإذا فرغ أعاد الدلة إلى الأمير وهكذا حتى فرغنا من القهوة.

همس أحد الأفراد في أذن الأمير الذي وقف وقال تفضلوا العشاء جاهز، عندئذ أطفئت النيران وبدأنا تناول الطعام في ظلام دامس، حتى فرغنا. قدمت لنا أشولة وهي عبارة عن (الفوط) لنمسح بها أيدينا عن باقي الطعام. بادره الوالد بقوله: أنعم الله عليك يابو فلاح، هكذا سمعته وهو يردد صحة وعافية، والله قدركم أكبر من ذلك. الوالد والجميع يقولون (ماجا قصور)، أي بذلتم كل جهد ولم تقصروا في شيء.

تناول الوالد بندقية تسمى أم طلقة صناعة فرنسية، ومغطاة بغطاء من الجلد ناولها للأمير وقال (هذى وصاتكم يابو فلاح) شكره الرجل، وودعنا بعبارات تنم عن الرضاء والمحبة والكرم التي يتحلى بها هؤلاء القوم.

وعدنا إلى شراعنا نتلمس خطانا في هذا الظلام الدامس، حتى وصلنا المخيم وبدأت سهرة من سهرات عقيل، فقد حضر بعض الشعراء من هذه القبيلة وكانت ليلة سمر وأحاديث سمعت عن ترتيبات ورد الرعايا وأنها ستصل قرب الفجر مع بزوغ القمر، وكان عبد العزيز الشقيران وبعض الخويا ينتظرونها حول البئر ويتجهزون للسقياء.

اخترت ركناً من شراعنا كالعادة وفرشت فراشي استعداداً للنوم، وبدأت أسمع حداء وغناء حول البئر، سألت بعض المرافقين قال هذه عادات العرب على الموارد يتعرف بعضهم على بعض بطريقة الحداء والغناء، والإبل تتجمع حول صوت الراعي وتعرفه، رحت في النوم ولم أفق إلا بعد طلوع الشمس وكان الوالد قد تركني هذه المرة آخذ قسطاً كبيراً من النوم.

توضأت وصليت الصبح، ثم وذهبت إلى حيث أفراد القافلة يتناولون القهوة والشاي، وقد وجدت معهم: صالح العبد الله البطين، حضر من العراق معه عشرة من الإبل محملة بالدلال المصنوعة، وبعض الأقمشة يسألهم عن الطريق والمراعي، ويسألونه عن أخبار البلاد والمراعي ولو أن طريقه يختلف عن مسارنا لكن هذه عادة العقيلات في الأسئلة والتعرف على البلاد الأخرى، سألوه عن خوياه قال كان وصولي من الدويد ومعه صالح الصعب من أهل العيون، قد تركته واتخذ مساراً آخر يرد على طريق لينة أما هو فقد آثر هذا الطريق لأن وجهته إلى حائل ــ القصيم، وليس معه إلا خوى يدعى محمد من قبيلة حرب.

أقمنا اليوم الرابع والعشرين على مورد الحيانية، وهي لفخد الشلقان من قبيلة شمر، وتاريخياً يعرف هذا المورد باسم (حيان) ثنية وموضع في شعر[1].

يقول الشاعر ابن مقبل:

تحملن من حيان بعد اقامة
وبعد عناء من فؤادك عان

وفي معجم ياقوت (الحيانية).

تجهزت القافلة للرحيل بعد صلاة الظهر، والعصر قصراً، إلى حيث مورد (عذفا) أحد الموارد في طريقنا إلى الجوف. ودعنا صالح البطين، هو ورفيقه وسارا من حيث أتينا. وصالح البطين رحمه الله له قصة طويلة عرفتها بعد ذلك سيكون لها موضع في هذه الرحلة ودعنا أمير القبيلة على أمل لقاء بعد العودة، والإبل المحملة تأخذ طريقها بصعوبة فتسير على كثبان الرمال العالية، والرعايا ضرب لها موعد على مورد عذفا صباح اليوم السادس والعشرون، ولم تسر القافلة سوى بضع ساعات (عشينا) في أحد الكثبان حتى قرب الفجر، تجهزت القافلة للمسير وكالعادة تركنا عبد الله الحربي على ذلوله للصيد لكنه هذه المرة لم يوفق وانضم إلينا وقت (المضحى) وتناول معنا طعام الغداء وفي أثناء تناول القهوة والشاي حضر إلينا أحد (الصلبة) من قبيلة (صليب المعروفة) وكأن الأرض انشقت عنه وظهر منها، صب الوالد له القهوة والشاي وأخذ يسأله عن الأرض والربيع والمورد والقبائل فسأله العويسي: عندكم سمن أو صيد؟ فهذه القبيلة معروفة بصيد الغزلان وتتبع أثرها ومعرفة طرق صيدها، فرد بالإيجاب: معى (عكتين

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع جـ ١ ص ٤٤٠.

سـمـن) ولحـم أربـعة غزلان مجففة، حملها على ظهر حمار له كان يخفيه على مسافة بعيدة من مكاننا، اشتروا (عكة السمن) وعاء من جلد الغزلان يوضع به السمن، و يزن الواحد حوالي خمسة كيلو جرامات من السمن.

اشـتـر ينا العكة بأربعة ريالات، ولحم الغزال الواحد بخمسة ريالات، سـارت الـقـافـلـة دون توقف، وعرفت أن مورد عذفا قريب وخيل إلى أنني سـوف أراه بـعـد قـلـيل لكن الليل جاء وتوقفنا للراحة وكل فترة أسأل عن المورد، و يقولون إنه على مسافة قريبة. عرفت بعد ذلك من الأمثال البدوية مـن يـقـول (قـريـب الـبـدو) يعني البدوي يقول قريب ولا تقل المسافة عما يقوله بمسيرة يوم.

وفـي صباح اليوم الخامس والعشرون كانت القافلة تسير بسرعة ولازلت أفـكـر بـقـول (الـصـلبي) المورد قريب، وتعبت من الأسئلة ولم أصدق حتى رأيت المورد.

المورد الرابع
عذفا وبيوت العرب

مورد عذفا في أرض فسيحة تحيط به بعض الجبال العالية من شماله وجنوبه وشرقه كثبان من الرمال العالية وفيه خمس آبار ومياهها قريبة أخذنا الجانب الجنوبي للمورد وعلى مسافة لا تزيد على خمسين متراً نصبنا خيامنا وأنزلنا أحمال الثاية وكالعادة حضر افراد من القبيلة مرحبين بوصول الضيفان وقد أحضر أحدهم اثنين من الكباش لكل شراع، وعلى إحدى الآبار نصبت المقامات للسقياء لكن مياه الآبار قليلة واستغرق سقيا جمال القافلة أكثر من خمس ساعات منقطعة مما جعل الخويا يستريحون قليلاً حتى تتجمع المياه ومن ثم ينزلون الدلو إلى البئر، وهكذا بدأت السقياء من صلاة الظهر إلى مابعد صلاة العشاء.

ومورد عذفا يقع بين النفود وأرض الجندل القريبة من بلدة سكاكا، فتجد إلى يمينك وأنت متجه إلى سكاكا مرتفعات جبلية ومرتفعات رملية، ثم تنحسر الرمال لتظهر أرض الجندل طينية وترتفع جبال غربها وشرقها ووديان إلى الشرق والغرب منها.

أوقدت النيرات في مخيمنا وبعد أن فرغنا من العشاء، وهذا ايذانا بالدعوة إلى كل زائر، فعادة العرب إذا ما انتهت مأدبة العشاء، أوقدت النيران حضر إلينا مجموعة من الأعراب فيهم الكبير في السن، وفيهم الشاب، يرافقون رئيس القبيلة، وبعد أحاديث السمر شكونا لهم ضحولة الماء في هذه البئر، فقال رئيس القبيلة هذه حالة جميع الآبار لدينا،

ونستطيع أن نكلف أحد الرجال بالنزول إلى البئر فهي قريبة المسافة وتنظيفها ونقل الطينية وبعض المواد العالقة بها، وتم الاتفاق على أن يبدأ العمل في الصباح الباكر بتكليف أحد الرجال، فإذا وردت الرعايا يمكن تقسيمها إلى مجموعات وسقى أول مجموعة على أحد الآبار القريبة حتى ينتهي تنظيف البئر.

حضر الرعيان في الصباح الباكر واتفق معهم على تحديد مجموعات السقى فكانت تأتي مجموعة من إبل العويسي وعددها عشرون رأساً ثم يليها مجموعة من إبل الوالد، وهكذا شربت إبل العويسي الدفعة الأولى وكان قد فرغ من نظافة البئر وأخرجت منها كمية كبيرة من الطين والشوائب وأصبحت مياهها وفيرة وقد استغرقت السقياء لرعية من الإبل نهار يوم ستة وعشرين وانتهت سقيا الإبل جميعاً بعد صلاة العصر في اليوم التالي.

وهو بالقياس أصعب فترة للسقياء في رحلتنا على الرغم من المساعدات التي بذلها أفراد العشيرة واستطعنا أن نتحرك من هذا المورد قبل غروب الشمس لكننا لم نبرح المكان بقيل حتى توقفت الإبل وتركت للرعى، فقد أنهك الجميع التعب.

في صباح اليوم السابع والعشرون تحركت القافلة وضرب موعداً للرعيان بالحضور إلى مورد الشويحيطية في ضواحي سكاكا واستمرت القافلة بالسير إلى الجوف أو دومة الجندل كما تعرف تاريخياً، بعد أن سرنا مسافة نصف مرحلة بدأت الأرض تتغير، اختفت الجبال وظهرت الكثبان الرملية والأراضي الطينية، طيب المراعي في هذه الأرض أتاح فرصة لنا للراحة قليلاً، ثم واصلنا المسير، في مرتفعات من الكثبان الرملية وعلى البعد رأينا أشجار النخيل الكثيرة، حول جبال واكمات عرفت أننا مقبلون على أرض الجوف وهذه مباني مدينة سكاكا قد لاحت.

كانت الإبل قد سبقتنا إلى مورد الشويحيطية، ولم تستطع القافلة دخول البلد لأن دخولنا في ذلك الوقت يتطلب اجراءات رسمية، لابد من اتباعها والمرور على نقاط تفتيش حكومية لدخول وخروج القافلة خاصة تلك التي تحمل مواداً تموينية مما اضطررنا معه إلى المبيت خارج البلدة قبيل دخول سكاكا.

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين صحونا مبكرين، وصلينا الفجر، ثم واصلنا رحلتنا، وعند اقترابنا من سكاكا وجدنا إحدى الخيام منصوبة وفيها بعض الحراس ورجال الحكومة، رحبوا بنا وبعد تسجيل مامعنا من المواد الغذائية وعدد الإبل، ونوع البضائع، ودخلنا إلى المدينة في حوالي الساعة العاشرة صباحاً.

المورد الخامس

يعتبر مورد الشويحطة في ضواحي مدينة سكاكا هو المورد الخامس تلتقي حوله جميع الإبل الواردة من العراق والقصيم وغيرها. أما عن مدينة سكاكا فهي مدينة صغيرة في ذلك الوقت، يغلب عليها طابع البناء الحديث، مقر الإمارة اتخذ مكانه على ربوة عالية بجانبه مبنى المالية الجديد بيت القاضي وهو في ذلك الوقت المرحوم الشيخ فيصل بن مبارك يساعدة الشيخ صالح ابن محمد المرشود وبعض البيوت المتناثرة هنا وهناك تتوسطها مساحة من الأرض كبيرة أقيمت على جنباتها المحلات التجارية والجامع الكبير.

استأجرنا أحد البيوت في شرقي المدينة وحطت القافلة أحمالها من القهوة والهيل ثم أدخلت إلى البيت الذي يتكون من مجلس كبير تسمى (القهوة) صالة كبيرة صيفية إلى جانب المجلس، مقامة على أعمدة وشرفات وصالة كبيرة أخرى فيها أربع غرف كبيرة ومطبخ وحمام وفناء فسيح وحوش كبير يتسع لحوالي عشرة جمال جهز البيت بالمواد اللازمة للأكل والشرب واناء كبير للمياه، ومكان لتعليق القرب وحمل جمل من الحطب إلى غير ذلك من الاستعدادات الأولية لبيوت ذلك الوقت. ويسكن بجوارنا عبد الرحمن العقل من أهل عيون الجوء وسليمان المطوع وسليمان الصبيحي، وقد سبقنا إلى الجوف مجموعة كبيرة من العقيلات تسكن المدينة، ولهم محلات ويسوقون بضاعتهم في سوقها الكبير، حيث يشترون ويبيعون: الأقمشة والمواد الغذائية والمواشي والإبل والأغنام ولهم مجلس حول الحوانيت يفرشون السجاد حولها ويجتمعون كل له شلة من الأصحاب.

الماء في ذلك الوقت كان يشكل مشكلة فمعظم الآبار مياهها مالحة،

ولايوجد داخل المدينة بئر صالحة للشرب سوى بئر (الصقعبي) يسقون الناس منها طوال إقامتهم قام الصقعبي بفتح جزءاً من بيته على الشارع بحيث يسقي من البئر أهل البيوت القريبة، فتجد النساء والأطفال حول هذه البئر يسقون منه.

النخيل التي تحيط بالمدينة أصناف وأصناف من التمور، نادرة الوجود، يتغزل فيها الشعراء. الناس هنا كرماء وبسطاء، لم تصل إليهم المدنية بعد، طبيعة الهدوء وطول البال، يستطيع المار إلى (الحائط) البستان أن ياكل من ثمار النخيل ولا أحد من أصحابه ينكر عليه التصرف بل أنه يرحب بالضيف و يعرض عليه القهوة.

الجوف قديما دومة الجندل[1] قيل هي غائط من الأرض خمسة فراسخ ومن الغرب عين تثج فتسقي مابه من النخيل والزرع، وحصنها مارد وسميت دومة الجندل وسكاكا وذو القارة. وعلى الدومة سور حصين وفي داخل السور حصن منيع يقال له حصن مارد.

وقد شاهدت بنفسي قصر مارد يرتفع مبناه عالياً وحوله سور كبير والباحث عن الآثار يجد الكثير منها.

خرجت مجموعة من العقيلات المقيمين في سكاكا في اليوم التاسع والعشرين إلى حيث مورد صوير شرقي مدينة سكاكا انتظاراً لوصول الرعايا من الإبل القادمة من القصيم ومن العراق. وصل إلى جانب رعايانا ثلاث رعايا واحدة لعبد الله السعيد واثنتان لسليمان المطوع وأخيه إبراهيم، اشترى عبد الرحمن الزائدي رعية من عبد الله السعيد بسعر ثمانية عشر ديناراً أردنياً للرأس الواحدة على أن يسلمه القيمة بعد تصريفها في أسواق عمان وفلسطين.

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع جـ ٢ ص ٥٤٢.

نودي لصلاة المغرب، وأم المصلين حمد المطوع وبعد أن فرغت الصلاة أخذت المجموعة تتطلع إلى هلال (رجب) ١٣٦٤هـ وكان أول من رأى الهلال هو المرحوم عبد الرحمن البازعي وشاركه الوالد رحمه الله ومعهما بعض الشباب: علي القرعاوي ــ عبد الله الرشده، عدنا إلى البلد مسرعين حيث قابلنا الشيخ فيصل بن مبارك قاضي الجوف ــ رحمه الله ــ في بيته وشهدوا برؤية هلال رجب.

وفي الليلة التالية أقام أمير الجوف عبد الرحمن بن أحمد السديري مأدبة عشاء لكبار الشخصيات من أهل الجوف والمقيمين من العقيلات، بمناسبة افتتاح المبنى الجديد لمالية سكاكا، وكان مدير المالية آنذاك عبد الله المحمد الشقاوي، يساعده أخوه سليمان وقد حضر المأدبة أمير القريات عبد العزيز بن أحمد السديري ومدير المالية عبد الله المحمد السويلم ومدير مالية حقل عبد الله عبد العزيز السابق، وفضيلة الشيخ فيصل بن مبارك ومساعدة الشيخ صالح المحمد المرشود.

وبعد انتهاء مأدبة العشاء، كانت السهرة في بيت عبد الله المحمد السعيد، وعند تجمع العقيلات فوجئنا بدخول عبد العزيز العبد لله البطن قادماً من القصيم ولم يكن في حالة تسمح بسؤاله وإنما سأل مباشرة الوالد عن أخيه صالح، وهل قابلناه فعلا على مورد الحيانية، ومن الذي كان معه، وماهي عدد إبله في قافلته. قائلاً: لقد قابلناكم علي مورد زرود منذ أكثر من اسبوع وعرفنا من خوياه القادمين من العراق أنه قد ترك بغداد قبلهم، فأين ذهب، تلك أسئلة كثيرة لم يترك الوالد يلتقط أنفاسه ليرد عليه، فطيب الجميع خاطره وأنه لابد أن يكون قد ذهب إلى حائل لتصريف بضاعته.

لكن الأحداث والأخبار تواترت بعد ذلك، فقد جاءت برقية من جلالة الملك عبد العزيز إلى أمير الجوف يسأل فيها عن أوصاف صالح البطين

والمرافقين له وعدد الإبل، واستدعى عبد العزيز البطين إلى الإمارة لاستيفاء بعض الأسئلة، مما جعله يتأكد من أن هناك حدثا ما، عند ذلك تأكد للجميع إما أنه قد راح ضحية الموت عطشاً، أو ضل الطريق في الصحراء، وهو ما جعل الحكومة السعودية تبدي اهتماماً بالبحث عنه، وجند الكثير من الرجال من امارة الجوف تبحث في حدود الامارة، وكلفت إمارة حائل، وإمارة القصيم بنفس الموضوع، وسافر عبد العزيز البطين إلى القصيم للبحث عن رفاقه الذين كانوا معه في بغداد، وخرجوا بعد أن اشتروا بضائعهم والبقاء مع والدته ووالده اللذين أخفى عنهما هذا الخبر.

وانشغلنا بعد ذلك بالاعداد لرحلة السفر، وتجهزت القافلة بعد أن ضرب موعد للرعيان على مورد قارة.

المورد السادس

قراقر تقع غربي مدينة الجوف القديم. وقارة أو ذو القارة تاريخياً[1]، إحدى القريات التي منها دومة الجندل ــ سكاكا ــ وهي على جبل وبها حصن منيع، وقد شاهدت بنفسي هذا الحصن، وعند حضورنا إلى قارة كانت قرية كبيرة وكثيرة المزارع وبها آبار مياهها وفيرة ولايزيد عمقها عن عشرة أمتار.

وفي رحلتنا من مدينة بريدة حتى وصولنا سكاكا قطعنا المسافة في تسعة عشر يوماً، وقد امتدت إقامتنا في سكاكا طوال شهر رجب حيث صرفنا البضاعة من الهيل والقهوة، اما الرعايا فقد خرجت إلى الفلاة ترعى ثم تعود لمورد قارا كنت خلال إقامتنا في سكاكا أتردد على مسجد سكاكا الكبير حيث الشيخ فيصل بن مبارك ــ رحمه الله ــ يدرس الطلاب من أبناء الجوف الحديث وعلوم الدين، وقد انتظمت بالدراسة وقطعت شوطاً كبيراً في دراسة علوم الدين والحديث.

كان الشيخ فيصل ــ رحمه الله ــ حلو اللسان تصدر عنه ابتسامة بين الحين والآخر تشجع الدارس وتبعد عنه الخوف، وقد تعودت على الحياة في سكاكا حيث اللعب مع الصبية من أقراني أبناء عبد الرحمن العقل، نذهب إلى المزارع ونتعلم السباحة في الآبار، وقد رتبت طريقة حياتي اليومية، ففي الصباح الباكر آخذ عربة اليد وفيها قربة فارغة فأذهب إلى بئر الصقعبي لأعبىء القربة وأعود بها إلى البيت ثم أعود إلى البئر أملأ قربة

---

(١) مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ١٠٥٦.

أخرى، واحدة للطبخ والثانية للقهوة ومستلزماتها. ثم أخرج بعد ذلك إلى السوق حيث دكان عبد الله المحمد السعيد أجد الوالد وحوله أصدقاؤه من التجار فنذهب قبل صلاة الظهر إلى البيوت نتناول طعام الغداء، ثم نعود إلى البيت، وقبل صلاة العصر أتوضأ وأذهب إلى المسجد حيث الدراسة على يد الشيخ فيصل رحمه الله، يتخلل ذلك صلاة العصر ومابعده بقليل أعود فأضع كتبي في البيت وأشرب الشاي وأخرج إلى السوق، وظللت على هذا المنوال شهر رجب، وحان وقت الرحيل.

خرج عبد العزيز الشقيران إلى قراقر لمقابلة الرعيان والاتفاق معهم على أن يكونوا على المورد في أول شهر شعبان، ودعت الشيخ فيصل ــ رحمه الله ــ الذي تمنى لي التوفيق، ولم أفكر في يوم من الأيام أن يكون لي معه لقاء، لكن الصدفة جمعتني به للمرة الثانية، حيث كنت في رحلة علاجية في القاهرة وكان رحمه الله قد حضر للعلاج في عام ١٣٧٤هـ وفي مستشفى الروضة قابلته، ولم ينس رحمه الله أن يزور المرضى من السعوديين في هذا المستشفى الذي كان يديره الدكتور عمر أسعد من أهل المدينة وكنا متجاورين في الغرفة، وترددت عليه طوال إقامته القصيرة التي عاد بعدها إلى المملكة ثم انتقل إلى رحمة الله.

تحدد سفر القافلة في أول شعبان ١٣٦٤هـ، ورفاقنا في الرحلة: عبد الرحمن البازعي وإبراهيم المطوع، والوالد ومعنا خمس رعايا منها رعيتان لنا، ورعيتان لإبراهيم المطوع، ورعية لعبد الرحمن الزائدي، أما العويسي رفيقنا في الرحلة من القصيم فقد باع إبله وتخلف في الجوف.

وحدد للرعيان مورد (قراقر) غربي الجوف في يوم الخامس من شهر شعبان أما القافلة فقد خرجت في اليوم الثاني من الشهر خرجنا إلى الجوف ويقال له (الغرب) الذي وصلنا إليه مساء وبالقرب من المدينة أقمنا ليلتنا وفي الصباح خرجنا لزيارة المدينة، وفيها يقيم أولاد عبد الكريم

الدرويش، وتربطهم بنا صلة قرابة، قابلنا ابنهم الأكبر عبد المحسن، ودعانا إلى الغداء في بيته، ثم خرجنا بعد ذلك في تجوال إلى المزارع والنخيل التي تشتهر بها الجوف واشترينا صفائح من التمر يسمى (تمر الحلوه).

والجوف تاريخياً[1] اقليم ومدن في الشمال الأوسط للمملكة العربية السعودية من الطرف الجنوبي لوادي السرحان و يعرف إقليم الجوف باسم (الجوبة) وهو غور مثلث الزوايا تقريباً، وله قاعدة واحدة تساير الحافة الشمالية للنفود الكبير، وتقوم قمته الشمالية عند الشويحطية وتحده من الغرب جبال الجوبه الغربي ومن الشرق جبال الجوبه الشرق، وتبلغ مساحة الجوف ٣٨٥٠ كيلو متراً مربعاً تقريباً، تفصله عن نجد صحراء النفود، وهذه المنطقة جيدة الري، وفيها الكثير من حراج النخيل، وتعد من المناطق الزراعية الهامة. وأهم مدينتين: الجوف وسكاكا المركز الإداري، أما قارة والطوير فهي قرى صغيره وموقع الجوف أو جوف عامر على خط عرض ٢٩، ٤٨/٥ شمالاً وخط طول ٣٩، ٥٢/١ شرقاً. ولقد عرف الجوف لدى الجغرافيين العرب الأوائل باسم دومة الجندل أما الاسم جوف بن عامر فيستعمل كثيراً للتفريق بينه وبين الجوف الجنوبي الذي يقع جنوبي شرق وادي نجران وقد اشتهر الجوف كمركز تجاري تؤمه قبائل شمر ــ عنزة ــ الرولة ــ الشرارات وعرف جوف السرحان قديماً شمالى نجد ناحية الشام وهو أكبر واحة في بلاد العرب الشمالية بعد القصيم وكانت دومة الجندل (ذكرها بطلميوس باسم ودميرا) وقد عرف المكان من تاريخ البني عليه الصلاة والسلام، و يقال أنه نسبة إلى أحد أبناء إسماعيل، وقد أنفذ النبي صلى الله عليه وسلم قائده خالد بن الوليد إلى دومة الجندل عندما كان في طريقه إلى غزوة تبوك عام ٩ للهجرة/٦٣٠م.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ١٣ ص ٤٥ ــ ٤٦.

واختيرت دومة الجندل بعد وقعة صفين عام ٣٧هـ/٦٥٧م مكاناً التقى فيه علي ومعاوية للتحكيم أيام الردة.

وقد زار الرحالة يوكارت جوف السرحان عام ١٨١٢م ثم زارها يوتنكث بعد ذلك بسبعين عاماً، وعرفوا جوف السرحان على أنه مجموعة من القرى الكبيرة وتعرف بالأسواق.

ذلك كان في الماضي البعيد والقريب، وكانت زيارتي لها عام ١٣٦٤هـ هي مجموعة من القرى الصغيرة يتكون منها الجوف، مدينة في الغرب وسكاكا العاصمة الادارية لاقليم الجوف مدينة كبيرة عامرة بأسواقها التجارية ومساكنها المبنية من اللبن والحجارة.

وقد زرتها بعد ذلك بثلاث سنوات في عام ١٣٦٧هـ، يوم أن كان المتطوعون من الشعب السعودي يرابطون فيها أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨م وقد اختلفت اختلافاً كبيراً. أما الزيارة الثالثة فكانت عام ١٣٨٠هـ كانت الطائرة تحلق بنا فوق الجوف ونزلنا بمطارها. والزيارة الرابعة كان عام ١٤٠٣هـ وقد لاحظت اختلافاً كبيراً: فشبكات الطرق تربطها بجميع مدن المملكة العربية السعودية، ولها مطار كبير، وشاهدت ازدهار الزراعة بها.

تلك خواطر لابد من تسجيلها ونعود بالقاريء الكريم إلى رحلتنا: أقمنا في مدينة الجوف اليوم الثاني والثالث، تجولنا في المزارع والآثار وتركنا الجوف صباح يوم ٤ شعبان متجهين إلى قراقر وهو المورد بعد الجوف، والأراضي الواقعة مابين الجوف وقراقرة كثيرة المراعي وأمامنا وادي السرحان مياهه مالحة والأشجار فيه إذا أكلت منه الإبل يصيبها نوع من الإسهال. أقمنا ليلتنا مابين الجوف وقراقر، وفي الصباح الباكر سارت القافلة ووصلنا المورد قبل الظهر، رتبت السقياء للرعايا وانتهت من الشرب قبل غروب الشمس وتركنا المورد وعلى مسافة قريبة منه أقمنا ليلتنا.

قراقر[1] وادي لكلب ومنه قطع خالد بن الوليد المفازة بينه و بين سوى من أرض الشام وفيه قال أحد الشعراء:

لله در رافع انى اهتدى
خمسا اذا ماسارها الجيش بكى

ماسارها من قبله انس يرى
فوز من قراقر إلى سوى

وقال النابغة :

يظل الأماء يتبدرن قديحها
كما ابتدرت كلب مياه قراقر

وقال الأعشي :

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتي
وراكبها يوم اللقاء وقلت

هم خربوا بالحنوحنو قراقر
مقدمة الهامرز حتى تولت

في الصباح تحركت القافلة باتجاه وادي السرحان الذي وصلنا إليه بعد مسيرة أربع ساعات تقريباً من (مراحنا) وسلكنا الطرق الوعرة والشعاب الصغيرة التى تسيل منها بعض المياه المالحة، الإبل المحملة تسير الهوينا، وقد انزلق أحد الجمال بالأرض السبخة وكاد أن ينكسر لولا أن الله سلم، شعاب تسيل مياهها مالحة ويحاول الرعيان منع الإبل من الأكل من الأشجار حتى لايصيبها الاسهال.

---

(١) معجم البلدان ياقوت جـ ٤ ص ٣١٨.

وشاهدت قبل الظهر (القريات) وهي المدينة المعروفة مرتفعة على جبل يخيل لمن ينظر إليه أنها تسبح حول مياه راكدة وهو مايعرف بالسراب، ويستحيل كما عرفت على المرء أن يصل لهذه المدينة وقت الشتاء إلا من خلال طرق ضيقة مهدت بالحجارة، قد اختار الأمير عبد العزيز السديري رحمه الله أرضا تقع إلى الغرب من القريات طينية رملية قليلة الأملاح لتكون مقراً لمدينة جديدة تم انشاؤها في حدود عام ١٣٥٤هـ أقام فيها قصراً للامارة ومباني للدوائر الحكومية وخططت المدينة الجديدة للسكن ووزعت على الأهالي الذين كانوا في السابق يقيمون في القريات وسميت المدينة (النبك) وأصبحت مدينة القريات القديمة لا تضم سوى مركز للحكومة.

والقريات [1] جمع تصغير القرية، قيل إنها من منازل طي وقيا إنها تبعد من وادي السرحان إلى تيما مسافة أربع ليال.

قطعنا الوادي قبل غروب الشمس، وبعد مسيرة ثلاث ساعات تقريباً بدأت الأرض تتغير إلى أرض طينية رملية كثيرة الأشجار وقليلة الملوحة، بتنا ليلتنا في هذه الأرض. وفي صباح اليوم التالي تحركت القافلة باتجاه النبك.

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع جـ ٣ ص ١٠٨٥.

الفصل الثالث

المورد السابع
مدينة النبك

تقدم الوالد وإبراهيم المطوع وعبد الرحمن الزايدي، لترتيب سكن للمجموعة وسقيا للإبل، وبقيت مع الخوياً وكان وصولنا إلى المدينة مابين صلاة الظهر والعصر، واستقبلنا أحد العقيلات المقيمين في النبك ليدلنا على مكان السكن، وأمام أحد البيوت حطت القافلة رحالها.

البيت مكون من صالة كبيرة (القهوة) وخمس غرف كبيرة ومطبخ وحمام وحوش كبير يتسع لعشرة جمال، نزعت الأشدة من على ظهور جمال الثاية وركائبنا وقادها أحد الخويا إلى بئر كبيرة تبعد عن المدينة مسافة كيلو متر وهي البئر المخصصة لسقياء الإبل من السابلة، والعرب المقيمين حول النبك أو الذين يردون إليها من الفلاة وحولها بيوت أغراب كثيرة، وبعد صلاة المغرب توجهنا إلى بيت حمد المحمد السعيد حيث تناول الجميع طعام العشاء وقد دعى إليها بعض المقيمين من العقيلات وبعض السكان من الشوام والأردنيين الذين يعملون بالتجارة وحضر مدير المالية يومئذ عبد الله المحمد السويلم الذي دعانا إلى مأدبة عشاء بعد غد لأنه من الضروري أن يسلم رجال المجموعة على الأمير عبد العزيز السديري وهو صديق لجميع العقيلات، بتنا ليلتنا في النبك وفي الصباح توجه الوالد وإبراهيم المطوع وعبد الرحمن الزايدي وحمد السعيد إلى حيث قصر الامارة للسلام على الأمير دخلنا القصر.

مباني كبيرة داخل حوش واسع يضم مبنى الإمارة وإدارات المالية، والبرق والبريد وهذه الدوائر الرسمية يومئذ هي الموجودة في كل منطقة من مناطق المملكة.

دخلنا إلى مجلس الأمير الذي قابلنا بالترحاب باسماً سائلاً عن أخبار الرحلات والطرق والتجارة إلى غير ذلك من الأسئلة، ثم أومأ إلى أحد الخويا ودخل رجلان يحملان دلال القهوة ثم الشاي، واستأذن الجميع بالانصراف قال الأمير يخاطب الوالد (نراكم عندنا الليلة على العشاء أنت والجماعة) دعوة للعشاء قبلها الجميع وانصرفنا.

دعانا إلى الغداء أحد الأشوام وهو شريك حمد السعيد في التجارة، ثم عدنا إلى البيت كان موعدنا مع الرعيان الحضور إلى القريات مساء يوم ٨ شعبان ١٣٦٤هـ وفي المساء ذهبنا لتلبية دعوة الأمير عبد العزيز الذي قابلنا باشاً كعادته رحمه الله، كان ضمن مجموعة العقيلات ممن دعوا للعشاء صالح الحميد المبارك وهو يلقب (الأمير) وهو معروف لدى العقيلات فإنه سريع النكتة ولديه ملح لايمله الجالسون، قال له أحد العقيلات (تعال هنا يا الأمير) قال مايجتمع حصانين في مربط واحد، إما أنا أو عبد العزيز السديري، ضحك الأمير وقربه حوله وكانت ليلة قضيناها لا أنسى تلك الأحاديث عن الحرب والشجاعة والسفرات والبيع والشراء، وقبل أن يستأذن الجميع مودعين قال لهم الأمير: غداً سيصل الأخ محمد السديري وسنقيم له مأدبة عشاء ولابد من حضوركم. اعتذر الوالد بأن لنا موعداً سابقاً مع عبد الله السويلم، ووعد الجميع على أن يحضروا لقضاء السهرة بعد العشاء ووافق.

عبد العزيز السديري هو أكبر أبناء أحمد السديري وهو خال جلالة الملك فهد بن عبد العزيز واخوته سلطان ــ تركي ــ عبد الرحمٰن ــ نايف ــ سلمان ــ أحمد، وقد ترك هذا اللقاء أثراً في نفسي لأنه خصني ببعض المجاملات بصفتي أصغر الموجودين سناً، وبدأ يلاطفني بقوله لازم تكمل الدراسة، ابني عبد الله يدرس الآن في بيروت، وعبد الله هو عبد الله بن عبد العزيز السديري رئيس مجلس إدارة جريدة الجزيرة، وقد سبق له أن تولى وكالة وزارة الشئون البلدية والقروية ثم سفيراً للسعودية في الكويت.

وحسب الموعد الذي ضرب لوصول الرعايا إلى المورد خرجنا لاستقبال الرعيان وترتيب السقياء على البئر، وردت الإبل حسب الموعد، وبدأ الرعيان يسقونها، وبعد الانتهاء بقيت بقرب المورد حتى حضور مندوب من مالية النبك لعدها وتحصيل الرسوم على كل رأس ريال ونصف.

عدنا بعد الاطمئنان على ترتيب السقيا وذهبنا إلى بيت عبد الله السويلم وتناولنا طعام العشاء على عجل وودعناه إلى قصر الإمارة للسلام على الأمير محمد السديري وهو صديق للوالد ومعروف بكرمه وشجاعته وله مواقف كثيرة مع العقيلات ومن فحول الشعراء العرب، أمضينا بقية السهرة في أحاديث وقصص عن البطولات والشعر والشعراء وكان يرافقه شاعر ألقى إحدى قصائده مما أضفى على السهرة جواً من الود والصفاء.

وقد خصني الأمير محمد رحمه الله ببعض المجاملات وانتهت السهرة قمنا مودعين للأمير عبد العزيز والأمير محمد بأن سفرنا سيكون غداً بعد أن تنتهي المالية من إجراءاتها الرسمية، وفي الصباح الباكر جاءت جمال القافلة مع عبد العزيز الشقيران ومحمد أبو يوسف وقصدنا إلى المورد حيث كان مندوب المالية قد سبقنا إلى هناك وقام بإحصاء الإبل وجهز كشوفاته الرسمية وأعطى لكل تاجر إيصالاً بما دفع من رسوم وكشفاً بعدد الإبل نسلمه إلى الدوريات التي تقابلنا على الحدود أو إلى مركز الديثه.

تركنا النبك حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وبعد أن قطعنا مسافة توقفنا للمضحى بدأت بقية الإبل تتوافد علينا برعيانها واجتمع شمل القافلة ثم تحركنا بعد أن فرغنا من طعام الغداء باتجاه الشمال الغربي حيث مركز الحديثه. وقد تواعدنا مع الرعيان على الالتقاء عند نقطة حددها الوالد لهم — فهو الدليل الذي يقود القافلة — وهي واد كثير الخمض لاأعرف اسمه بالتحديد لكنه كان معروفاً للرعيان.

وقبل أن نصل إلى مركز الحديثه أقمنا ليلتنا، وعلى ضوء النار حضر

إليـنا مجموعة من الرجال على خمسة من الإبل مسلحين بالبنادق عرفت أنهم من الدوريات التي تجوب مناطق الحدود، طرحوا السلام ورحبنا بهم أناخوا إبلهم وحضروا لتناول القهوة والشاي، وبدأ الطباخ يجهز لهم طعام العشاء، عرضنا عليهم الأوراق وكتبوا ورقة إلى أمير الحديثه سلمت للوالد وودعونا.

وفي الصباح الباكر تجهزت القافلة للرحيل وقبل الظهر كنا أمام مركز الحديثه وهو مبنى صغير من الطين حوله بيوت من الأعراب، وفيه بئر للسقياء، حطت القافلة رحالها أمام المركز واستقبلنا أميرها وهو من أهل الزلفي وهو رجل مشهور بالكرم، صمم على دعوتنا لطعام الغداء، واعتذر الجميع عن تلبية الدعوة، وبعد أن شربنا القهوة والشاي بعث مع أحد خوياه ذبيحتين حملت على جمال الثاية.

وتقضي التعليمات الرسمية لدى مركز الحديثه بأن يكلف أحد الخويا بمرافقة القافلة حتى نهاية الحدود السعودية وعد الإبل. فغادرنا المركز بمرافقة أحد الخويا ويدعى خلف بن عناد من قبيلة حرب، وقد رافقنا حتى المكان المحدد للرعيان وهو لايبعد عن الحدود الأردنية سوى بضعة أميال. فقط وصلنا إلى المكان قبل غياب الشمس وأقمنا فيه حتى وصول الإبل، وبدأ الطباخون يجهزون طعام العشاء، وفي الهجيع من الليل وصل الراعي فلاح ابن وطبان على راحلته وقد حدد مكان الرعايا وفي الصباح الباكر مررنا على الإبل، ومعنا الخوي فقام بعدها ووجدها مطابقة لكشوفات مالية النبك، وسلم الكشف وأمضى صورته التي سلمت لكل تاجر وودعنا الرجل بعد أن حملناه تحياتنا إلى أمير الحديثه.

أما الأمير محمد السديري رحمه الله فقد قابلته في الجوف في شهر جماد الثاني عام ١٣٦٧هـ بينا كنت عائداً من رحلتي قضيتها متنقلاً بين الأردن وفلسطين ومصر، وهو يشارك في تجهيز الحملة من المتطوعين السعوديين لحرب فلسطين، وكنت عائداً إلى القصيم فقابلته وعرفته بنفسي، ثم أمر باركابي

مع إحدى السيارات التي تغادر الجوف إلى الرياض لنقل الأطعمة والمواد الغذائية، قافلة من السيارات. عددها عشر غادرت الجوف وعلى رأسها المرحوم عبد العزيز الشبيلي ركبت سيارة يقودها عبد العزيز الحمزة أما بقية السيارات فيقودها سائقون أكثريتهم من أهل القصيم منهم صالح البراهيم الموسى الحمود، محمد البراهيم الحمزة، عبد الكريم السديري، وقد غادرنا الجوف صباح يوم السبت ٢٦ جماد الثاني عام ١٣٦٧هـ ووصلنا الرياض في أول رجب تقريباً، ثم ركبت سيارة أخرى من الرياض إلى القصيم.

والمقابلة الثالثة عندما كنت مسئولاً عن الشئون المالية والادارية بوكالة الحرس الوطني للمنطقة الغربية، سافرت برفقة المرحوم محمد العيبان وكيل الحرس الوطني للمنطقة الغربية إلى جيزان عام ١٣٨٦هـ لتفقد الحرس الوطني هناك، وكان أميراً لجيزان ذهب الوكيل للسلام عليه وكنت معه. فدخلنا على الأمير محمد في مجلسه بقصر إمارة جيزان سلمنا عليه ودعا الوكيل إلى الجلوس بجانبه اخترت لمجلسي أحد الكراسي البعيدة، لكنه رحمه الله، أشار إلى أن أدنو منه وبادرني بقوله: أنت إبراهيم المسلم، فرددت عليه بالايجاب، عندئذ سلم علي للمرة الثانية، ومال إلى محمد العيبان يشرح له صداقته مع الوالد والعقيلات، وحبه للقصيم وأهله، وانتهت مهمتنا في جيزان عدنا إلى جدة، وبعدت الشقة بيننا، فقد أنهى عمله الرسمي وسافر إلى القصيم واختار أرضاً في البطين شمالي القصيم أقام عليها مزرعة كبيرة واتخذها سكناً له، ومن حبه للقصيم أوصى في حالة وفاته أن يدفن في هذه المنطقة، وقد كان حيث توفي عام ١٤٠١هـ، وشيع جنازته لفيف من الأمراء ورجال الدولة والمحبون له ودفن بالقصيم، رحمه الله رحمة واسعة.

عودة إلى الرحلة بعد أن ودعنا الخوي التابع لمركز الحديثه، سارت القافلة والرعايا باتجاه الحدود الأردنية وقد عبرنا الحدود مع إشراقة الشمس، تقدم ركب من الخويا لترتيب السقياء على بئر العمري.

المورد الثامن

بئر العمري هو أول الموارد التي تقابلنا داخل الحدود الأردنية، وهذه البئر قد حفرت حديثاً مع تخطيط الحدود الأردنية ــ السعودية لتشرب منها العشائر الأردنية السعودية ــ العراقية ــ السورية. وقد عقدت معاهدة صداقة وحسن جوار بين هذه البلدان فيما يخص بتنقلات العشائر فالشتاء تقضيه في الفلاة ترعى في الحماد والوديان وتعود في الصيف إلى بعض الموارد سواء في الحدود الأردنية أو السعودية أو العراقية أو السورية.

كان يقيم على البئر عند وصولنا إليها قبائل من بني صخر وبعض القبائل من الرولة وبعد أن فرغنا من السقياء قبل غروب الشمس تجهزت القافلة للمسير إلى عمان العاصمة الأردنية وقد اعتاد العقيلات أن يبقوا في قرية سحاب ــ التي تبعد عن بئر العمرى بمرحلتين فسرنا ليلاً وقد تغيرت طبيعة الأرض من حولنا وديان واسعة وجبال، وأخذ طريقنا يتخذ تعاريج من الأودية وكلما ارتفعنا إلى مرتفع هبطنا في أودية وشعاب.

كان القمر قد بدأ يظهر. السماء صافية في ليلة الثاني عشر من شعبان ١٣٦٤هـ وبدأت الجبال تضيق عن واد كبير تصب فيه أفرع من شعاب صغيرة، وسمعت الوالد يقول: سوف (نعشي) نتوقف قبل الوصول إلى قصر النصيرات إلى الصباح لأن هناك دوريات أردنية والسير بالليل يثير ريبة هذه الدوريات، فاخترنا أحد المرتفعات وأقمنا ليلتنا.

في الصباح الباكر تحركت القافلة وسلكنا أحد الأودية الكبيرة في انحدار الغرب إلى حيث قرية سحاب، الوادي كبير ومن حوله ترتفع جبال

عـالـيـة وبـعـد مـسيرة خمس ساعات تقريباً. في هذا الوادي توقفت القافلة للـمـضـحـى.و يـؤكـد الـوالـد أنه يمكن رؤية قصر على الطريق أو دير قديم وحـولـه بـعـض الـبـيـوت المـبـنية من الحجارة وهذا الدير غير بعيد عنا و بعد اسـتراحة واصلنا رحلتنا فقربنا من (الدير) أكثر وإذ هو قصر كبير مبني من الحـجارة وحـولـه بـعـض الـبيوت المبنية على طراز لم أعهده في الأبنية التي عـرفت ترتفع فوق المبنى الكبير إلى الطابق الثاني مايشبه (المنارة أو البرج) وهـو مـربـع الشكل وقد ذكر الوالد أن هذا القصر قديم مهجور وحوله ديبان سامة يسمع لها أصوات في الليل.

و يـقـال إن هـذا الـقـصر فـيـه بئر للـمـيـاه يسقى منها المارة وهذا يوضحه الـطـريـق المـعـبـد بـالحـجارة الذي يبتديء من حافة الوادي الكبير الجنوبية تـاركاً هذا القصر إلى اليمين، ثم انحدرنا منه إلى الوادي الكبير الذي تركناه حيـث يـتـفـرع الوادي إلى مجرى كبير يأخذ إلى الجنوب الغربي وفرع صغير مـنـه يـتـجـه إلـى الشمال الغربي وهذا الفرع سلكناه في طريقنا إلى قرية سحاب.

المورد التاسع

قرية سحاب تقع إلى الجنوب الشرقي من عمان وتبعد عنها بمرحلة حيث تنتهي المراعي بهذه القرية يقوم العقيلات بإرسال الاعلاف الجافة من أسواق عمان. وتبقى الإبل في هذه القرية من ثلاثة إلى أربعة أيام تدخل بأحد الأحواش وموقعها يرتفع عن سطح الأرض بحوالي ٨٠٠ متر، ويمكن أن يشاهد جبل الشيخ وهو معروف باسم طويل الثلج، يقول أحد الشعراء(١):

هذا طويل الثلج ياطريف جيناه

وين الحطب بني نسوى عشانا

وفي هذه القرية يخرج العقيلات المقيمون في عمان من التجار والمعدية، وتعرض عليهم الإبل يبيع من يبيع ويشتري من يشتري.

وصلنا قرية سحاب قبل حلول الظلام وفي أحد الأحواش حطت القافلة رحالها وادخلت الإبل أحد الأحواش الكبيرة وقدمت لها الأعلاف والمياه وقد حضر من العقيلات أثناء وجودنا: عبد الله العمرو ــ عيد المحمد العيد ــ صالح العقل ــ وكانوا ضيوفاً على الوالد في البيت الذي استأجرناه، أما إبراهيم المطوع وعبد الرحمن الزايدي فقد أقاما في بيوت مجاورة وأحلا إبلهما في الأحواش، وتبدأ السهرات في كل ليلة عند أحد التجار يحضرها بعض أهالي القرية من الذين يتاجرون بالمواشي أو لديهم الأعلاف والأحواش.

تجهزنا للسفر إلى عمان يوم ١٤ شعبان ١٣٦٤هـ بعد أن أقمنا في القرية يومين بقى الرعيان ومعهم الإبل أما التجار فقد تحدد حضورهم إلى عمان يوم ١٤ شعبان.

---

(١) العقيلات للمؤلف ص ٥٨.

الوصول إلى عمّان

وصلنا إلى عمان مساء يوم الأثنين ١٤ شعبان ١٣٦٤هـ وعمان بالفتح والتشديد كانت قصبة البلقاء[١]. قال أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري: «عمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع ورستاقها البلقاء». وهي معدن الحبوب والأنعام بها عدة أنهار وأرحبة تديرها الماء ولها جامع ظريف في طرف السوق مفسفس الصحن، وقصر جالوت على جبل يطل عليها وبها قبر اوريا النبي عليه السلام وعليه مسجد وملعب سليمان بن داوود عليه السلام قال الأحوص بن محمد الأنصاري:

أقول لعمان وهل طربى به
إلى أهل سلع ان تشوقت نافع

اصاح ألم يحزنك ريح مريضة
وبرق تلالا بالعقيقن لامع

وان غريب الدار مما يشوقه
نسيم الرياح والبروق اللوامع

وكيف اشتياق المرء يبكي صبابة
إلى من نأى عن داره وهو طامع

أما البلقاء[٢] فيقول عنها الدمشقي: إن البلقاء كانت تابعة لمملكة

(١) معجم البلدان، ياقوت جـ ٤ ص ١٥١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٨ ص ١٩.

الكرك حوالي عام ١٣٠٠م وألحقت بإمارة دمشق في عهد دولة المماليك الثانية عام ٧٠٠ هـ تقريباً وكانت قصبتها حسبان وكثيراً مايتحدث الجغرافيون عن ظاهر البلقاء وذلك يطلق عليه أحياناً اسم (الظاهر) بدلاً من البلقاء والبلقاء بمعناها الضيق تشمل البلاد التي بين زرقاء عمان وزرقاء معين وهي بالتقريب (بيرابا) القديمة وقصبتها السلط.

اختار الوالد سكناً لنا شرقي ميدان رأس العين، بيت مكون من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام بمدخل خاص اتخذنا إحدى الغرف للنوم والأخرى للجلوس فرشت بمعدات القهوة والشاي.

اختار إبراهيم المطوع سكناً غرب رأس العين بجوار سكن إبراهيم السليمان الجربوع الذي وجدناه مع بعض العقيلات في عمان مثل محمد السعوي على السعوي صالح السلومي واختار عبد الرحمن الزايدي سكناً في شمالي رأس العين.

ورأس العين هو بداية مجرى عين تسيل في وسط عمان يسكن حولها العقيلات في بيوت متجاورة وفيها برحة كبيرة هي موقف للإبل، وأحواش. وتعتبر هذه البرحة سوقاً صغيراً يعرض العقيلات فيها إبلهم وهي غير السوق الرئيسي في عمان حيث تجلب إليه كافة المواشي من الإبل والخيول والأغنام والأبقار.

ويقطن في عمان مجموعة أخرى من العقيلات احترفت مهنة التجارة والصرافة مثل علي أبا الخيل ــ محمد الزبن ــ محمد السويل ــ صالح العبد الله المديفر ــ حمد السعيد ــ محمد العبد الله المديفر.

وحضر إلى عمان وقت وجودنا: ناصر العلى الجاسر ــ فهد القسومي، قادمين من غزة ــ عبد الله الدبيخى ــ عثمان الدبيخى ــ علي الناصر الغصن ــ سليمان الصبيحي، قادمين من العراق وسليمان إبراهيم الجربوع

ــ محمد إبراهيم العويد ــ محمد إبراهيم الجربوع، قادمين من القصيم.

وفي إحدى الفسحات بجوار مجرى العين أقاموا مسجداً لأداء فروض الصلاة يؤمهم أحد العقيلات، وكان علي أن أبحث عن أبناء العقيلات ممن هم في سني لكنني للأسف بقيت وحيداً إلا من الخويا.

ولا أثقل عليك عزيزي القاريء، لقد انبهرت بمنظرت هذه المدينة. شاب في نحو الثانية عشرة يصل إلى مدينة كبيرة تختلف فيها العادات والتقاليد عن بلادنا.

أول ما لفت نظري تلك الأبنية المختلفة الطرز من الحجارة والأسمنت، والأنوار تملأ شوارع المدينة وهي ذات تقاسيم وأبنية لم آلفها من قبل. وحول مجرى العين تقوم الأبنية على الضفتين وترتفع حتى تصل إلى قم الجبال، كثيرة الأشجار، شوارعها فسيحة ولها شارع كبير يبتديء من رأس العين حتى يصل إلى ميدان فسيح حوله بنايات وفنادق ومتاجر وتتفرع منه شوارع معبدة تصل إلى تلك البنايات المقامة بأعلى الجبال.

وشوارع أخرى تربط البيوت في رأس الجبال بطريقة حلزونية الشارع الرئيسي يخترق عمان من الشمال إلى الجنوب و يتفرع منه شوارع فسيحة تحيطها الأشجار من كل جانب وفيها المحطة الرئيسية لنقل الركاب بالسيارات من عمان إلى المدن والقرى الأردنية وإلى دمشق وغيرها.

المجتمع الأردني

لقد وصلت إلى عمان وذهني خلو من عادات هذه البلاد وتقاليدها فقد خرجت من مجتمع تحكمه عادات وتقاليد. فالبنت مند أن تتجاوز العاشرة من عمرها (تتخفر) وتلبس ملابس النساء، من عباءة وغطاء للرأس والوجه.

والمرأة الحضرية لاتتناول طعاماً مع زوجها في طبق واحد، ولاتجلس مع الرجال في مكان واحد فالرجال لهم مجلسهم ومأكلهم ومشربهم.

والمجتمع القبلي في البادية يختلف عن عادات الحضر فالمرأة البدوية ترتدي غطاء للوجه له فتحتان للعينين وتختلط مع الرجال حول آبار المياه وتشاركهم في الرعي وسقياء الإبل على الموارد وربما تنزل مع جيران لها إلى الأسواق للتسوق وبيع المواشي والسمن وماتنسجه من أصواف المواشي.

لكنني في هذا المجتمع الجديد فوجئت بعادات استنكرتها في بادىء الأمر وكنت أحمر خجلاً وأنا أرى الفتيات في المدن يحملقن في. ومع مرور الأيام بدأت أتعود على هذا النوع من الاختلاط الذي لم أعرفه.

والمجتمع الأردني هو أول ماقابلني في هذه الرحلة. وسأحاول بقدر الجهد أن أعطي القارىء فكرة عنه، فمن السهل التعرف على افراد الشعب فهم خليط من القبائل العربية استوطنوا الأردن وكونوا شعباً عربياً يتمسك بالعادات والتقاليد، وإن اختلفت العادات بين سكان المدن من الأجناس الأخرى غير المسلمين.

والأردني بطبعه حذر في تعامله مع الناس الغرباء ولايضع الثقة إلا

فيمن يستحقها لكن وجودي الكثير بالأغوار وهي الملتقى الحقيقي للقبائل العربية كونت صداقات مع الكثيرين ممن كانت لهم صلات بالوالد ــ رحمه الله ــ وكنا نزورهم في بيوتهم ولاتختلف عاداتهم وتقاليدهم عن العادات القبلية. لقد دخلت إلى عمان في ذلك الوقت شاباً في مقتبل العمر مبهوراً بمدينة كبيرة ولم أدخلها كسائح هذه الأيام الذي لديه خلفية عن المدن، انظر إلى شوارعها وسكانها بشيء من الرهبة والحذر ولم يكن فيها أحد من أبناء العقيلات ممن هم في سني أركن إلى مرافقتهم والحديث معهم.

قبعت في البيت أرقب كل شيء إلا من بعض المرات التي أخرج فيها لقضاء حاجتنا من أحد محلات البقالة القريبة، وشيئاً فشيئاً بدأت أخرج إلى حيث رأس العين والمياه تتدفق منها ثم إلى دكان صالح المديفر ومحمد السويل في محاولة للقضاء على هذه الرهبة.

وفي أحد الأيام علمت بوصول محمد العبد الله المديفر، وهو من أقراني، تعرفت عليه وبدأنا نخرج إلى أسواق عمان ثم خرجت مع الوالد سائرين على الأقدام إلى حيث محل علاوي الكباريتي وهو من أهل العقبة، وتربطه بالوالد علاقة عمل ويقوم بعمل الصرافة ويحول للعقيلات نقودهم بواسطته إلى السعودية، فهو وكيل لأحد التجار في المدينة المنورة عبد العزيز الخريجي واخوانه.

نزلت من رأس العين مع الوالد فلاحظت الشوارع معبدة ونظيفة، ومن هذا الشارع يتفرع شارع يؤدي إلى طريق معان ــ العقبة، وشارع يؤدي إلى أكبر شارع عرفته في ذلك الوقت هو شارع (الحسين) في منتصفه أشار الوالد إلى الجامع الكبير وحوله ساحة كبيرة، المحلات التجارية على جانبي الشارع هذا محل: محمد الزبن هذا محل علي أبا الخيل وهما من العقيلات اللذين استوطنا عمان.

وصلنا إلى محل علاوى الكباريتي، رحب بنا الرجل وكلف أحد رجاله باحضار القهوة والشاي في زمزميات لها ألوان لم أعهدها من قبل، بدأ يصب منها القهوة، وهنا سمعت رنين جرس، تناول الرجل جهازاً صغيراً بيده عرفت لأول مرة (التليفون) وبدأ يتكلم بواسطة هذا الجهاز وقد استأذن من الوالد أن لديه مكالمة هامة مع أحد عملائه بالقدس وانصرف يخاطب هذا الجهاز العجيب وأسمع طنيناً من الجهاز الموجود بيده.

لفت نظري كثرة السيارات تمر في هذه الشوارع من مختلف الأشكال والألوان بعد أن انتهى الرجل من حديثه توجه إلى الوالد يقول (علمي) يسلم عليك، وعرفت بعد ذلك أن علمي هذا هو صراف في مدينة القدس يدعى (شريف علمي) وعنده يودع العقيلات نقودهم عندما يصلون إلى القدس.

كنت مبهوراً بأنواع وألوان وأشكال الملابس التي يرتديها الأردنيون. الرجال يلبسون البنطلون والغترة والعقال بعضهم يلبس الغترة (الشماغ) باللون الأحمر والبعض الآخر يلبس الشماغ باللون الأزرق وبعضهم يلبس الطربوش الأحمر والآخر فارع الرأس رغم البرودة.

وتلبس النساء ملابس مزركشة زاهية الألوان، فالمدنيات يلبسن (البلوزة والجونلة) بحزام في الوسط وسافرات الوجه والبعض يلبسن ثياباً مزركشة ذات ألوان أسود وأحمر، يغطين شعرهن. كنتا أخجل من نظرات النساء خاصة المدنيات فلم أتعود أن أراهن بهذه المناظر وإن كنت أختلس النظرات بين الحين والآخر.

تحدد موعد نزول الإبل إلى الغور ثم إلى أسواق فلسطين، تحرك الخويا من راس العين ومعهم بعض المطايا عندما هدأت حركة السيارات باتجاه (قرية الزرقاء) شمالي عمان حيث توجد إبل العقيلات أما الوالد وناصر

العلى الجاسر وفهد القسومي وكنت معهم، ركبنا سيارة من الموقف صباحاً إلى الزرقاء، قطعنا المسافة بحوالي الساعة، وتجهزت الإبل للمسير ركبت راحلتي وودعنا الوالد ورفقاءه على أمل اللقاء في سوق طولكرم وعادوا بنفس السيارة إلى عمان.

كان معنا حصان اسمه (مرزوق) بعثه إبراهيم السلمان الجربوع إلى الشيخ فوزان السابق في مصر سوف نتركه في غزة لدى إبراهيم العبد العزيز الجربوع. وتحركنا من الزرقاء في نحو العاشرة صباحاً، القرى متناثرة، لكن الرهبة هذه المرة لم تدعني أسأل عن هذه القرى التي نمر بها وإنما عرفت أن اتجاهنا سيكون الجنوب الغربي حيث قرية صويلح.

الزرقاء[1] : تأنيث الأزرق، موضع بالشام بناحية معان وهو نهر عظيم يصب في الغور، يروي أحد المعاصرين من العقيلات أن بعض الشعراء من أهل الجوف زار قرية الزرقاء ونزل ضيفاً على أحد القوم ولم يكونوا كرماء معه فأنشد يقول[2].

لا واعلى والشمس يبدى شعقها
من حدر الزرقا على نقرة الجوف

نسقي بها غرس ضليل ورقها
إلى نماها للمسايير وضيوف

احلى من البلقاء وحامي مرقها
مقلطة للضيف ذرعان وكتوف

بعد مسيرة أربع ساعات وصلنا إلى قرية (صويلح) وهي قرية كبيرة

---

(١) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع جـ ١ ص ٦٦٢.
(٢) كتاب العقيلات للمؤلف ص ١٩٤.

يخترقها الطريق المؤدي إلى (أربد) والشام وبعد أن تركنا القرية توقفنا للرعي والراحة وبدأت الأرض تتبدل فبعد أن كنا في أرض مترامية الأطراف بدأنا في النزول إلى سفوح الجبال العالية، وكان الجو بارداً على الرغم من أننا في الصيف بعد قضاء فترة راحة وواصلنا المسير، ونحن الآن مابين صلاة الظهر والعصر من يوم ٢١ شعبان ١٣٦٤هـ وعلى مشارف مدينة (السلط) كان لابد لنزول الإبل من الطريق الرئيسي الذي يربط الأردن بفلسطين وتمر به السيارات المتجهة بين البلدين، واستطعنا بجهد كبير أن نعبر الطريق وقد تزودنا من السلط ببعض الفاكهة مثل البرقوق والخوخ الذي تشتهر به المدينة، وكان يومها (رطل) البرقوق بأربعة قروش أردنية. وسمعت رفقاء الرحلة يتحدثون عن جبل عال تنزل منه الإبل ولابد من السير برفق حتى لاينزلق أحداها. عبرنا هذا الجبل بسلامة الله كانت الإبل تنزل منه بصعوبة ومن حوله منخفض يؤدي إلى واد لو أن أحد الجمال نزل به لفقدناه إلى الأبد.

وصلنا إلى شونة بني عدوان واخترقنا طريق السيارات مرة أخرى في طريق ضيق بين الجبال إلى حيث طريق معبد بالحجارة يترك شونة بني عدوان من قبيلة بني صخر المعروفة إلى اليسار، هذا الطريق كان ممراً للعقيلات الأوائل ويقول أحد العقيلات المعاصرين[١]:

كان هذا الطريق دائماً مثاراً للمشاكل بين العقيلات وبني صخر، ففي الزمن القديم كانت تفرض إتاوة على عبوره. وأقام العقيلات دعوى لدى الحاكم الانجليزي في عمان بأن الأوائل من العقيلات قد شاركوا بني صخر في تعبيد هذا الطريق وعلى هذا الأساس أصبح من حق العقيلات وأبنائهم عبور هذا الطريق بدون إتاوة وقد ربحوا هذه القضية ولم يعد أحد من بني صخر يعترض طريقهم.

---

(١) عثمان العبد الله الدبيخي.

أما الشونة فهي قرية صغيرة في أسفل الجبل المعروف بجبل عمان من ناحية الغور يقطنها المتحضرون من بني صخر، وحولها بيوت العشائر وتشتهر بزراعة الموز.

والغور: هو غور الأردن بين عمان ــ والقدس، واد مسيرة ثلاثة أيام وعرضه أقل من نصف يوم وفيه نهر الأردن يشقه في طوله يبدأ سريانه من بحيرة طبريا ويصب في البحر الميت أو بحيرة لوط يقول أحد الشعراء:

أراني ساكنا من بعد نجد
بلاد الغور والبلد التهام

وبوصلونا إلى الشونة أصبحنا في الغور، والجو هنا حار، سرنا باتجاه نهر الأردن وعلمت أنه يوجد على هذا النهر جسور للعبور: جسر اللنبي، وهو الجسر المخصص لعبور السيارات والأفراد إلى فلسطين وهناك جسر دامياً إلى الشمال منه وجسور أخرى، وقد وصلنا إلى نقطة متوسطة من النهر منبسطة تستطيع الإبل عبورها سبحة، هذه المنطقة نزلنا إليها من منخفض تتخلله أشجار كبيرة وكثيرة تسمى شجر القطف وهى شجرة طويلة الأغصان يتدلى منها أوراق بيضاء، تقبل الإبل على تناولها وأشجار كثيفة أخرى تختفي فيها الإبل مهما كانت أعدادها. فنزلنا في منخفض منها ونزلت أحمال الثاية وتركت الإبل ترعى.

بدأت أتعلم ركوب الحصان (مرزوق) الذي عقدت مه صحبة طوال رحلتنا من عمان فكنت إذا أردت ركوبه خفض من رأسه ورقبته حتى أضع جسدي عليه، ومن ثم يحملني إلى ظهره، بينما لم يكن على ظهره شيء، وهكذا اعتدت الركوب وألف هو ركوبي.

وبدأت أسير حول النهر وأسأل زملاء الرحلة من أين يأتي هذا النهر قال أحدهم: إن هذا النهر تجتمع فيه مياه أنهار كثيرة تجتمع في بحيرة

(طبريا) ثم يسير حيث يصب في بحيرة (لوط) أو البحر الميت ولايخرج من هذه البحيرة روافد فكنت أتساءل أين تذهب هذه المياه وعلمت أيضاً أن المياه تصل إلى البحيرة عذبة ثم تتحول إلى مياه مالحة.

أقمنا ليلتنا في الغور وكنت أسمع على البعد صوت هدير النهر. في الصباح الباكر حضر الوالد وبرفقته ناصر الجاسر ـــ وفهد القسومي بإحدى السيارات وتجهزت الرعايا لعبور النهر فقد حضر من الضفة الغربية جماعة من قبيلة النصيرات قريتهم تقع على الضفة الغربية وكثيراً مايتعاونون مع العقيلات على عبور إبلهم إلى الضفة الغربية وقبل صلاة الظهر بدأ العبور أولا رعية فهد القسومي مكونة من ٩١ رأساً من الإبل، ومعها الرعيا والمعدية وجماعة النصيرات يركبون على الخيل: اثنان في مقدمة الرعية، واثنان في المؤخرة بحيث لايحيد أحد عن المكان المحدد للعبور ودخلت الإبل إلى المياه ومسافة العبور من النهر تقدر بحوالي ٢٠٠ متر، وتم العبور في حوالي ساعة ونصف الساعة، عاد بعدها الرجال الذي يركبون الخيل لعبور إبلنا المكونة من رعيتين تضمان ١٧٨ رأساً من الإبل بالإضافة إلى الحصان (مرزوق) ودخلت الإبلت إلى الماء وقد شذ أحد الجمال عن بقية الإبل وأخذت تقلبه مياه النهر الجارفة وكنت أشاهده في إحدى (الحوامات) ينقلب على ظهره حتى وصل إلى أحد الجروف في النهر فوقف على رجليه والماء يغطي نصفه، وسارت الإبل الأخرى إلى الضفة الغربية ونزل وراء هذا الجمل أحد النصيرات وهو خبير في العبور وتمكن من إعادة الجمل ثانية، ولكن إلى الضفة الشرقية.

ثم عبرت إبل ناصر الجاسر مكونة من ١٠١ من الإبل وعبر معها الجمل الذي كاد أن يغرق ولكن هذه المرة هو الذي يقود الإبل في المقدمة لأنه سمع صوت الراعي وهو يناديه، وهكذا أتم عبور الإبل وبقيت أنا مع الوالد ومعنا زملاؤه، نشاهد هذا المنظر، والإبل تبتعد عنا وعاد الرجال المكلفون

بـالـعبـور و يـطلـق عليهم اسم (المعدية) وتسلموا أجورهم عن كل رأس من الإبل خمسة قروش.

ثم ركـبنـا الـسيارة إلى جسر اللنبي لعبوره بعد أن اطمأن الجميع على إبـلـهـم، وعند الجسر توقفت السيارة وترجلنا منها إلى حيث ضابط الجوازات الأردني ثم ضابط الجوازات الانجليزي على الجسر بعد أن قدمنا أوراقاً عرفت فيا بـعـد أنهـا تخـص الوالد وناصر الجاسر، وفهد القسومي، وأنا. وهي (ورقة مـرور) كـانـت بمـثـابـة جوازات الـسـفـر آنـذاك، تؤخذ من مكتب الحاكم الانجليزي في الأردن، فيحتفظ بها حتى العودة من فلسطين.

نهـر الأردن[1]: ورد في الترجمة اليونانية السبعينية للتوارة باسم (او يورد انـاس) وذهـب البعض إلى أنه مستعار (ايارد انوس) اسم نهر في أقريطش وقـد سـمى هذا النهر بعد الحروب الصليبية باسم (الشيعة الكبيرة)، ولايزال هذا الاسم غالب بين البدو.

يـتـألـف نهـر الأردن مـن اجـتـماع ثلاثة جداول هي: الحصباني ـــ نهر اللـدان ـــ نهـر بانياس و بعد تلاقيها على مقربة من الحولة يتكون نهر الأردن الـذي يهـبـط بـعـد ذلـك هـبـوطـاً شـديـداً نحو الجنوب حتى يصب في بحيرة (طـبـر يـا) الـتـي تنخفض عن مستوى سطح البحر المتوسط بنحو ٦٨٢ قدماً و يـعـرف الـوادي بـعـد ذلـك باسم (الغور) ثم يصب في البحر الميت الذي يـنـخـفـض عن سطح البحر بنحو ١٢٩٢ قدماً، وتبلغ أعمق نقطة فيه حوالي ٢٦٠٠ قدم وليس لهذا البحر أي مخرج في جنوبيه أو غربيه.

ذلـك أن شـرقـي الـبـحـيـرة جـبـل عالي الارتفاع أما جنوبه فبعد انتهاء الـبـحـيـرة يـتـسـع جـنـوبـاً ليتكون منه الغور الصافي ولا تمتد إليه مياه هذه البحيرة.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥٠.

وعلى هذا فان مياه النهر تصب في البحر الميت ولاتخرج منه وتتبخر المياه بمقدار ١٣٠٠ جالون يومياً بفعل الحرارة القائظة في هذا الوادي، ومن ثم فإن الحياة في هذا البحر مستحيلة بسبب ازدياد نسبة الأملاح.

ونهر الأردن لايصلح للملاحة بسبب تياراته وتعدد منعرجاته وكثرة المناطق الضحلة المياه فيه. وقد عدد المؤرخون كثرة (المخاضات) التي كانت تسمى في العهود القديمة (معبر، أو معبرة) واستغرب الكثير منهم كيف تمكن بنو إسرائيل في قتالهم مع الآراميين الذين يسكنون شرقي النهر، أن يعبروا بجنودهم وخيولهم وعرباتهم، في حين لم تكن هناك جسور مشيدة على ضفتيه إلا في عهد الروم.

ونقول: لقد كان الأوائل من العقيلات في تجارتهم من الشام إلى مصر يعبرون النهر سباحة من الضفة الشرقية ــ إلى الغربية قرب قرية (المجامع) قبل التقاء نهر اليرموك بنهر الأردن. وشاهدت بنفسي عبور إبل العقيلات في رحلتي هذه معهم وكيف عبرت الإبل (الشريعة) مابين جسر داميا ــ جسر اللنبي ــ فالجمل وعليه أحماله يعبر من منطقة تغطي نصفه أما الجياد فكان لايظهر منها سوى نسف الرقبة مع الرأس ومن المحتمل عبور النهر في أوقات الصيف حيث المياه صافية أما في الشتاء فيستحيل العبور.

فلسطين

بعبور الإبل إلى الضفة الغربية لنهر الأردن نكون قد دخلنا فلسطين. يقول ياقوت[1]: فلسطين بالكسر ثم بالفتح وسكون السين قصبتها بيت المقدس ومن أشهر مدنها عسقلان والرملة وغزة (وارسوف) وربما تكون (كفر ياسيف) الواقعة بين عكا — يافا — قيسارية — نابلس — اريحا — يافا — بيت لحم — الخليل — بيت جبرين وطولها للراكب مسافة ثلاثة أيام أولها رفح من ناحية مصر، وآخرها (اللجون) من ناحية الغور وعرضها من يافا إلى أريحا نحو ثلاثة أيام وأكثرها جبال والسهل فيها قليل.

وقيل انها سميت بفلسطين بن سام بن أرام بن سام بن نوح عليه السلام، وقال الزجاجي سميت بفلسطين بن كلثوم من ولد (فلان) بن نوح.

وقال تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله» صدق الله العظيم.

وأول مايقابلنا من فلسطين أريحاً وهي مدينة الجبارين في الغور بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس وسميت بأريحا بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وأريحا تقع في الطرف الجنوبي للغور وموقعها شمالي غرب بحيرة لوط، والطريق منها يؤدي إلى الفارعة المطلع من أرض الغور إلى جبال فلسطين

---

(١) معجم البلدان ياقوت جـ ٤ ص ٢٧٤.

حيث نابلس وفي الشمال من الغور تقع مدينة بيسان [1] بها عين تقول ليلى الاخيلية في ابن الحمير:

جـزى الله خـيـرا والجـزاء مـكـنـة
فـتـى مـن عُـقـيـل ساد غير مكلف

فـتـى كـانـت الـدنيا تهون بَأسرها
عـلـيـه ولم يـنـفـك جـم الـتـصرف

يـنـال عـلـيـات الأمـور بهـونـه
اذا هـي أعـيـت كـل خرق مـشرف

هـو الـذؤب أو أرى الـفـحـالى شتيه
بـدر يـاقـة مـن خمـر بـيـسان قرقف

ومابين جسر اللنبى الذي عبرناه بالسيارات وبيسان يوجد جسر داميا معبر آخر لنهر الأردن.

نابلس [2] سأل شيخ من أهل المعرفة من أهل نابلس: لم سميت بهذا الاسم؟ قال: إنه كان ههنا واد فيه حية وكانوا يسمونها (لس) فاحتالوا عليها حتى قتلوها وانتزعوا نابها وجاءوا بها فعلقوها على باب هذه المدينة وكل من رآها قال هذا (ناب ـ لس) أي ناب الحية ثم كثر استعمالها حتى كتبوها متصلة، وهكذا غلب عليها هذا الاسم.

وهي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة أرضها حجر بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ وبظاهر نابلس جبل ذكروا أن آدم عليه السلام سجد فيه.

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٥٢٧.
(٢) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٤٨.

ولم يكن طريقنا الذي اتخذناه بعد طلوعنا إلى جبال فلسطين يصل إلى مدينة نابلس فقد تركناها إلى اليمين باتجاه البيرة [1] بين نابلس وبيت المقدس، ونابلس خربها الملك الناصر صالح الدين حين استنقذها من الافرنج.

ومن البيرة اتخذنا طريقنا إلى اللد طلوعاً مع جبال تقع جنوبي نابلس واللد ذكرها ياقوت (لد) [2] قرية قرب بيت المقدس في فلسطين ببابها يدرك عيسى بن مريم الدجال فيقتله قال المعلى بن طريق مولى المهدي:

ياصاح اني قد حججت
وزرت بيت المقدس

وأتيت لدا عامدا
في عيد ماري جرجس

فرأيت فيه نسوة
مثل الظباء الكنس

وقد ذكره جميل في شعره:

تذكر أنسا من بثينة ذا القلب
وبثنة ذكراها لذى شجن يصبو

وحنت قلوصي فاستمعت لسحرها
برملة لد وهي مثنية تحبو

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٥٢٦.
(٢) نفس المصدر جـ ٥ ص ١٥.

واللد في رحلتنا هذه غير القرية التي ذكرها ياقوت، فقد وجدتها مدينة كبيرة ومبانيها عالية وعلى طراز معمارية حديثة وفيها سوق كبير للمواشي ومحلات، تجارية تغلب عليها الطابع المدني في تنظيمها ومعروضاتها من البضائع وتدخلها جميع أنواع السيارات والقطارات وفيها الآن مطار كبير.

وقد خرجنا من السوق الخاص بالمواشي إلى شوارع فسيحة يتفرع منها طريق يؤدي إلى الرملة وطريق آخر يؤدي إلى يافا.

الرملة[1]: مدينة كبيرة بفلسطين، وكانت رباطاً للمسلمين بينها وبين بيت المقدس (ثمانية عشر يوماً) وهي كورة من فلسطين.

وأظن ياقوت قد بالغ في المسافة فيما بينها وبين القدس، فهي لا تبعد أكثر من مرحلة واحدة إذا قيست إلى التحديد الذي حدده عن فلسطين ككل فهو يقول من يافا إلى أريحا ثلاث مراحل والرملة لا تبعد عن يافا سوى نصف مرحلة.

وقد اختلط العمران مابينها وبين اللد فأصبح بحكم التقدم في البناء، لا تبعد مسافات بأقل من عشرة كيلو مترات فقط.

عودا لياقوت ومعجمه، لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولى أخاه سليمان جند فلسطين. نزل باللد ثم نزل إلى الرملة وعمرها، وكان أول مابنى فيها قصره وداراً تعرف بدار الصباغين واختط المسجد وبناه وقد سكن الرملة جماعة من العلماء والأئمة فنسبوا إليها. يقول كثير:

حموا منزل الأملاك من مرج راهط
ورملة لد أن تباح سهولها

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٣ ص ٦٩.

يافا [1] مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا افتتحها صلاح الدين في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ثم استولى عليها الافرنج في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ثم استعادها منهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب في سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م.

و يافا عند وصولنا إلى أطرافها من الجنوب في طريقنا إلى غزة كانت مدينة كبيرة عامرة وتدل شوارعها الفسيحة وعماراتها على تقدم مدني وإن كانت قد التحمت في العمران مع تل أبيب ولايفصلها سوى شارع كبير.

وقد سرنا إلى غزة متجهين بالطريق الساحلي إلى حيث عسقلان واعتقد أنها (المجدل) وعسقلان [2] مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبين جبرين و يقال لها عروس الشام. وقد فتحها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عمر ابن الخطاب، واستولى عليها الافرنج ثم استنقذها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ، وقد وى في عسقلان وفضائلها أحاديث مأثورة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم وعن أصحابه منها قول عبد الله بن عمر «لكل شيء ذروة وذروة الشام عسقلان»

غزة [3] مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، قال أبو المنذر: غزة امرأة صور الذي بنى مدينة صور على الساحل وفيها مات هاشم بن عبد مناف جد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وبها قبره ولذلك يقال لها غزة هشام، قال أبو نواس:

وأصبحن قد فوزن من أرض فطرس
وهن عن البيت المقدس زور

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٥ ص ٤٢٦.

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ١٢٢.

(٣) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٢٠٢.

طوالب بالركبان غزة هاشم
وبالفرما من حاجهن شقور

وقال مطرود بن كعب الخزاعي يرثي هاشم بن عبد مناف:

مات الندى بالشام لما أن ثوى
فيه بغزة هاشم لايبعد

لايبعدون رب الغناء يعوده
عود السقيم يجود بين العود

بيت جبرين[1] قرية بين بيت المقدس وغزة وكان فيها قلعة حصينة وبين بيت جبرين وعسقلان وادٍ يزعمون أنه وادي النملة التي خاطبت سليمان بن داوود، عليهما السلام.

وبيت جبرين تقع على الطريق المؤدي من غزة إلى القدس، وقد عمرت وأصبحت مدينة كبيرة وفيها مزارع كبيرة وإلى الشرق منها الفالوجا.

تلك معلومات جغرافية استقيتها من معجم البلدان لياقوت وأضفت إليها معلومات جديدة اكتسبتها في رحلتي هذه من واقع مرورنا على هذه البلدان، وقد اعتبرتها مقدمة لمعرفة بعض البلدان في فلسطين التي زرتها بالفعل.

حبرون[2] ــ الخليل ــ اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام وقد على اسمها اسم الخليل وفيها دفنت سارة، ثم دفن إبراهيم إلى جوارها، ثم إسحاق عليه السلام وزوجته بريقه ثم يعقوب عليه السلام وزوجته (ليا).

---

(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٠١.
(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٢١٢.

وقد ظل مكان المنارة التي دفن فيها الخليل عليه السلام حتى زمن سليمان بن داوود عليهما السلام فأوحى الله إليه أن أبن على قبر خليلي(حيراً) ليكون لزواره من بعدك فخرج سليمان عليه السلام في قوم إلى أرض كنعان وطاف فلم يصبه فرجع إلى بيت المقدس فأوحى الله إليه امض فإنك ترى نوراً من السما إلى الأرض فهو موضع خليلي، فخرج فرأى ذلك فأمر أن يبنى على الموضع الذي يقال له الرامة وهى قرية من جبل مطل على حبرون فأوحى الله إليه أن ليس هذا هو الموضع، ولكن انظر إلى النصور الذي التصق بعنان السماء، فنظر فكان على حبرون وفوق المغارة.

فبنى عليه الحير قالوا وفي هذه المغارة قبر آدم عليه السلام وخلف الحبر قبر يوسف الصديق علي السلام جاء به موسى عليه السلام من مصر.

وقد بنى حول المغارة:(حيراً) محكم البناء حسن تحوطه أعمدة من الرخام، وقد على النبي عليه الصلاة والسلام تميم الداري في قومه وسأله أن يقطعه حبرون فأجابه وكتب له كتاباً: «نسخته هذا ماأعطٰ محمد رسول الله لتميم الداري وأصحابه أني أعطيكم بيت عيون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم بذمتهم وجميع مافيهم عطية بت ونفذت وسلمت ذلك لهم ولاعقابهم بعدهم أبد الآبدين فمن إذا هم فيه فقد أذى الله» شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضى الله عنهم.

وقد تعمرت الخليل في العصور الحديثة وأصبحت من أكبر مدن الضفة الغربية من فلسطين ولم يسعدنا الحظ بزيارة المدينة.

ولعلي بهذا أكون قد أعطيت القاريء الكريم فكرة عن أهم المدن في فلسطين وحسبي أنني زرت الكثير منها قبل استيلاء اليهود عليها.

وعودا إلى الرحلة، وصلنا إلى مدينة أريحا بالسيارة قبل المغرب بقليل وذهبنا إلى أحد الفنادق الصغيرة الذي اعتاد العقيلات قضاء الليل فيه.

وأقمنـا لـيلـتنا في الفندق وهو مكون من طابقين وصاحبه يسمى (أبو أحمد) تـناولنا طعام العشاء وفي الصباح الباكر أخذنا سيارة كبيرة حملت فيها المؤن من الأرز والـسكـر والـشـاي والدقيق و بعض الفاكهة، فركب الوالد وفهد الـقـسومـي في مقدمة السيارة بينما ركبت مع ناصر الجاسر على ظهر اللوري وتـركـنـا أريحا قـبل الظهر باتجاه الشمال إلى حيث تواعدنا مع بقية الخويا الذين عبروا مع الإبل قرب جسر داميا.

وهـكـذا تركنا أريحاً وراء ظهورنا و بعد مسيرة ساعة عبرنا إحدى العيون كـانت مياهها عذبة فنزلنا من السيارة، وشربنا منها، فهي ذات مياه غز يرة تـسقى المزارع القريبة منها وقيل إنها جفت أكثر من عشرين عاماً ثم عادت تتدفق من جديد.

وصلـنـا إلـى (الخـويا) وقد بنوا الخيام على مرتفع من الأرض، سمعت صـهـيـل الحـصان مرزوق وكنت قد فارقته يوم وليلة. كان هو أول المرحبين بقـدومـي ولم يسكت حتى ذهبت إليه حيث يربط بجوار الخيمة فربت عليه حتى أطمئن. كانت حرارة الجو قد تلطفت عند حلول الليل، ولم نشعر بتلك الحـرارة الـتـي ألهـبتـنـا بالنهار، أما الأرض فطيبة المراعي، وفي الصباح بدأ الـتـجـار يـفرزون (أجلاب) عدد من الإبل يختارونها لكل سوق، فالفلاح في طولكرم يختار نوعاً من الجمال لفلاحته بعكس الفلاح في شمال فلسطين أو جـنـوبـيها (والجـلـب) يختار كل تاجر عدداً من ٢٠ ــ ٢٥ رأساً من الإبل وتجمع إبل هذا التاجر مع ذاك وتذهب إلى الأسواق التي حددوها.

فمثلاً اختار الوالد ٢٠ رأساً من الإبل واختار القسومي والجاسر ٥٠ رأساً من الأبل فـأصبح المجموع ٧٠ رأساً تسلمها عدد ٣ من المعدية وهم رجال من الـعـقـيـلات اشتهروا بهـذا الاسم لمعرفتهم دروب الأسواق، وتركونا في الـصـبـاح إلـى حيث أسواق (طولكرم) وذهب معهم التجار حتى إذا وجدوا سيـارة على الطريق أقلتهم إلى نابلس باتوا فيها ليلتهم وفي الصباح تركوها

إلى سوق طولكرم صباح يوم الجمعة الموافق ٢٥ من شعبان ١٣٦٤هـ.

أما بقية الإبل فقد تجهزت للمسير ووصلنا في نحو الساعة الرابعة مساء إلى وادي الفارعة حيث يخترق طريق نابلس ـ جسر داميا جبل الفارعة الذي يرتفع حوالي ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وهو طريق معبد تسير فيه السيارات ولابد من اجتياز هذا الطريق في بداية الليل بحيث تكون حركة السيارات قد خفت عن هذا الطريق.

وهذا الطريق يشبه إلى حد كبير طريق الهدى بالطائف وتقطعه الإبل طلوعاً إلى قرية الفارعة بحوالي خمس أو ست ساعات تبعاً لتوقف حركة السيارات التي كثيراً ماكانت عائقاً. وقد اجتزنا هذا الطريق الوعر بسلامة الله. وفي إحدى (الحواكير) القريبة من قرية الفارعة توقفنا قرب الفجر. والحاكورة قسم م المزرعة مسور. وقد تركت أرضه بعد حصاد الزرع وفيه بقية من الرعي، تقبل عليه الإبل وأهل فلسطين تعودوا على مثل هذه الضيافة الليلية وبشرط أن يحترم الضيف شروط الضيافة بأن لا تتعدى الإبل أو المواشي على المزروعات الخضراء، وفي الصباح تحركنا من الفارعة تاركين طريق نابلس إلى اليمين.

نابلس[1]: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة كثيرة المياه نظيفة ونابلس الحديث معروف ومشهور وقد عرف بجبل النار وهو المدخل الشرقي الشمالي لفلسطين من الأردن.

توقفنا على مفترق الطرق المؤدية إلى نابلس ـ القدس لتناول القهوة والشاي، وبعض الفاكهة التي حصلنا عليها من إحدى المزارع وسألت الدليل معنا وهو من العقيلات المقيمين في غزة واسمه محمد السويل، عن الطريق التي سنسلكها في رحلتنا هذه، فقال: طريقنا سيأخذ اتجاه

---

(١) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع جـ ٣ ص ١٣٤٧.

الجنوب الغربي من هذا الطريق إلى قرية حواره ــ سفليت ــ صرفند ــ اللد. وفي أثناء توقفنا زارنا أحد المزارعين وعرفنا منه أن أول رمضان سيكون يوم الأربعاء أو الخميس القادم.

سارت القافلة إلى حيث مقصدنا أما الأجلاب التي تركتنا إلى طولكرم فسوف يكون اللقاء معهم في اللد وهو المحطة الرئيسية ــ لتجارة المواشي في وسط فلسطين وسوقها يوم الاثنين جاء الليل ونحن بالقرب من القرية سمعنا فيها الزغاريد والطبول واعترض طريقنا بعض الأفراد يرحبون بنا ويدعوننا إلى حضور حفل زفاف. فالتفت محمف السويل إلى المجموعة كمن يأخذ رأينا في البقاء، وكانت الإبل لازالت تعاني من طلوعها جبل الفارعة وآثار التعب واضحة عليها سقناها إلى أحد المنعطفات في الجبل حتى تعبر إحدى السيارات الطريق تركناها ترعى في إحدى الحواكير وقبلنا الدعوة.

وكانت ليلة لا أنساها، اكتملت بزفة العروس والعريس، وقامت الرقصات حيث اختلط فيها الناس واصوات طلقات نارية في الهواء حتى منتصف الليل، ودعنا أصحاب الدعوة وواصلنا المسير وقبل الفجر كنا في قرية سفليت، فتركنا القرية إلى اليمين نشاهد على البعد قرية صرفند وهي قرية حديثة تدل عليها أبنيتها ذات الدور والدورين والأنوار الكهربائية وهي تربط مابين اللد، وناتانيا بخط حديدي يخرج من اللد إلى حيفا.

اليوم هو السبت ٢٦ من شعبان ١٣٦٤هـ وسوق اللد يبتدىء من الاحد والاثنين، توقفنا لصلاة الفجر بإحدى الحواكير وحضر إلينا أحد (النواطير) حارس المزرعة رحب بنا وقدم لنا بطيختين وكان اسمه (ياسين) وقد سألته: كم تبعد اللد؟ قال حوالي أربع ساعات (بالجمال) ودعناه شاكرين وكنت أول مرة أتذوق طعم اليطيخ ثم واصلنا المسير وقبل صلاة الظهر كنا حول شجرة اللد في إحدى الحواكير وجدنا الوالد والقسومي

والجاسر ومعهم صالح بن محمد الفالح وهو من العقيلات و يسكن مدينة اللد، كانت إحدى السيارات الكبيرة تنزل حمولتها من الحشيش (علف) للإبل وصاحب الحاكورة قد جهز الماء للسقياء وأقمنا ليلتنا في شجرة اللد.

واللد من المدن الكبيرة في فلسطين وفيها سوق كبيرة تجلب إليها المواشي من الإبل والخيول والأبقار والاغنام وهي ملتقى للعقيلات الذين يحضرون الأسواق في فلسطين وفيها يسكن بعض العقيلات ممن يشتغلون (سماسرة) لتجار المواشي. والسوق له تقاليد قديمة في البيع والشراء، فكل تاجر معه إبل يفرش سجادة على الأرض و يضع الأشدة والثاية وبجانبه (الدلال) السمسار. يحضر المشتري إلى الإبل ويختار مايرغب في شرائه و يكون السمسار قد رافق المشتري ثم يأخذ بيده و يضعها في يد التاجر ثم تتلى عبارات (صلي على النبي) و يرد التاجر والحضور (اللهم صل عليه) اشترينا بكذا يفتح الله وإذا تمت البيعة يردد المعدية والملاحيق والرعيان أصواتاً (الله يربحه) يدفع المشتري العربون ويحضر مندوب البلدية ليتسلم رسم يسمى (الباج).

كنت في هذا اليوم أتطلع إلى التجار، هنا مجلس القسومي وابن جاسر وهنا مجلس الرميحي وهذا مجلس ابن فالح، وأمامهم ابلهم ولا تسمع إلا النداءات بالبيع والصلاة على النبي. انتهى في اليوم الأول السوق وقد باع الوالد في (طولكرم) ماجلبه، وفي اللد باع مائة رأس، ولم يبق معنا سوى ٥٣ رأساً من الإبل، وقد صرف القسومي وابن جاسر إبلهم ولم يبق معهم سوى عشرة رؤوس، وعادت بقية الإبل مع الخويا إلى شجرة اللد ودعانا صالح الفالح إلى بيته، حيث تناولنا طعام الغداء مع التجار وفي هذه الأثناء دخل علينا محمد العبد الله المديفر ومعه رعيتان من الإبل وسيحضر سوق الاثنين (غداً) قال الوالد: اشتري منك الرعيتين فقال أنا موافق.

بعد خروجنا من بيت الفالح أعطاني الوالد ورقة صغيرة وفيها سعر البيع

وأخذت دفتراً صغيراً كان الوالد يحتفظ به لأسجل مابيع وكان هذا أول درس لي في ممارسة الأعمال الحسابية، وبدأت أقلب الأسعار وأكتب والوالد رحمه الله يحثني على معرفة مجموع القيمة وأخذت في ذلك وقتاً، لكنه قال لي: ٢٥ جمل بسر ١٧ جنية قيمتها ٤٢٥ جنية أعطاني المجموع وأنا لازلت أجمع وأطرح. وهكذا بدأت التطبيق العملي لما درسته.

خرجنا إلى حيث تجمع العقيلات حول شجرة اللد، ولم يتفق الوالد مع محمد المديفر على شراء إبله واشترى القسومي والجاسر رعية، والثانية اشتراها علي الغصن الذي حضر من غزة بسعر ستة عشر جنيها للرأس.

عدنا إلى سوق اللد يوم الاثنين ولم يتصرف من الإبل سوى ١٥ رأساً فبقى معنا ثمانية وثلاثون، واستأجر الوالد فهد المنيف ومعه محمد أبو يوسف، أما عبد العزيز الشقيران والرعيان فقد عادوا إلى عمان من اللد حيث رجعوا إلى القصيم وتركنا أيضاً محمد السويل لينضم إلى علي الغصن أما الجاسر والقسومي، فقد بقى معهما رعيانها وخوياهما. بعد انتهاء السوق خرجت الإبل إلى شجرة اللد، ومنها تسافر إلى أسواق فلسطين الجنوبية. وعلمت أنهم سيمرون بطريقهم من اللد ـــ الرملة ـــ قطره ـــ الطيره ـــ الفالوجا ـــ غزة، وقد أناب الوالد محمد أبو يوسف بأن يتولى البيع في حالة جلبها من هذه الأسواق، وودعنا الرعيان والخويا من عاد منهم إلى عمان أو الذين واصلوا رحلتهم مع الإبل حتى الحصان (مرزوق) قد ودعته وأوصيت عليه أبو يوسف بأن يرعاه حتى يصل إلى غزة.

دعانا إبراهيم الدخيل في منزله باللد إلى تناول القهوة والشاي مع بقية العقيلات الموجودين في هذا السوق وقد عرفني الوالد بهم: محمد العبد العزيز الرميحي، وتربطنا به صلة رحم، يوسف البادي سمسار في أسواق غزة وبئر السبع، وخان يونس ـــ محمد المديفر وعيد المحمد العيد. أما بقية العقيلات فقد سافروا إلى غزة بإحدى الحافلات، وسمعتهم يتحدثون عن

دخول شهر رمضان، ربما يكون أوله يوم الأربعاء أو الخميس وعلى مادرجت عليه في هذه الرحلة يكون شهر رمضان الثلاثاء أو الأربعاء.

ودعنا إبراهيم الدخيل إلى محطة الاتوبيس في اللد المدينة كبيرة وأصحاب الحوانيت يزينون متاجرهم بالزينات ابتهاجاً بقرب حلول شهر رمضان المعظم، لقد بهرتني الزينات واللمبات الكهربائية وبعض الأوراق وقطع القماش الملونة، تعلو المتاجر وتتوسط في الطرقت. في أحد المطاعم توقفنا لتناول طعام الغداء، وكانت الموائد تتوسط المكان وعليها أغطية من القماش نظيفة وأطباق بيضاء وشوك وسكاكين وملاعق. وطلب الوالد نوعا من الطعام لم أفهم اسمه. قال للرجل: نريد اثنين (كباب) وسلطة، حضر الرجل يحمل أطباقاً فيها الأكل والخبز، وكانت أكلة لها طعم ومذاق طيب ربما هذه هي الأكلة التي أتناولها لأول مرة.

منذ وصولنا إلى عمان كانت الأكلات عبارة عن مكرونة ــ أرز أو خضار ولحم، وبعد انتهائنا من الأكل ذهبنا إلى محطة الأتوبيس وكان يقال له في فلسطين (الباص) وهذه الكلمة انجليزية، وكلمة (الباص) معروفة عند العقيلات بأنها (جواز السفر)

كان أحد العقيلات لايسمع وقد سافر من القدس إلى عمان بإحدى السيارات وأمام الضابط الانجليزي في جسر اللنبي راح يسأله بلغته الأجنبية (باسبورت) فلم يسمعه. وطلب إليه أن يقف في أحد الأركان حتى ينهي إجراءات بقية ركاب السيارة، وعندما فرغ كرر عليه سؤاله السابق، وكان أحد الضباط العرب من الأردنيين صاح في أذنه (معاك باص) فرد قائلاً: (كان قلت لي الباص) واصبحت هذه الكلمة من الأمثال الشعبية لدى العقيلات وغيرهم.

ركبنا أحد الاتوبيسات من الموقف وكانت الأجرة يومئذ خمسة عشر

قرشاً من اللد إلى غزة فسألت الوالد رحمه الله عن الطريق، قال لي: هناك طريقان إلى غزة: الأول يسير من اللد إلى يافا ــ سدود ــ المجدل ــ جباليا ــ غزة وهو طريقنا الآن، أما الثاني فهو يسير من اللد ــ الرملة ويجتمع مع طريق: يافا ــ القدس، وفي دجانيا يفترق طريق إلى الجنوب يؤدي إلى غزة، والطريق العام إلى القدس يتجه شرقاً. وتحرك الاتوبيس نحو الساعة الثانية والنصف ظهراً وخرجنا من شوارع اللد إلى حيث جنوبي يافا دون أن ندخل المدينة وبعد مسيرة ساعة وصلنا إلى محطة كبيرة للقطارات عرفت أنها سدود وقطعنا الخط الحديدي بعد أن توقفنا لوجود قطار يمر متجهاً إلى يافا. وكانت أول مرة أشاهد فيها قطاراً يجر سبع عربات محملة بالجنود.

وبدأنا سيرنا قرب شاطىء البحر المتوسط، ولم أكن قد شاهدت البحر، فرأيت أمامي زرقة شديدة تنعكس عليها أشعة الشمس، وتنبه الوالد إلى نظراتي قال هذا البحر. كنت أشاهد بعض النباتات الصغيرة المكونة من طابق واحد على شاطىء البحر، عرفت أنها مستوطنة يهودية تتبع لمنطقة (سدود) وبعد مسافة تقارب الساعة بدأ الطريق يتعرج نحو الجنوب والبحر يبتعد عنا ووصلنا إلى قرية صغيرة دخلنا شارعها الرئيسي، وللأسف نسيت اسم هذه القرية، إنما هي قرية تتبع (قضاء) المجدل، انفرج الطريق إلى الغرب شاهدنا على البعد المدينة، وبعد قليل وصلنا إليها، توقف الاتوبيس أمام أحد (الكراجات الكبيرة) وحوله مكتب لشركة النقل، ذهبنا إلى إحدى المقاهي القريبة من الكراج وشربنا الشاي وصلينا الظهر والعصر قصراً في زاوية المقهى سمعنا صوت (زامور) منبه السيارة يدعونا إلى الحضور، فحضر الجميع من الركاب وتحرك الاتوبيس في نحو الساعة الرابعة والنصف، وقد يتساءل القارىء عن تحديد الوقت بالساعة، لقد سمعت الوالد يقول لأصحابه من العقيلات في اللد سنسافر إلى غزة في (باص) الساعة اثنين ونصف وقبل أن نغادر المجدل كانت الساعة الكبيرة المعلقة

على مكتب الشركة تشير إلى الرابعة والنصف.

خرجنا من شوارع المجدل من الجنوب الشرقي، فالمدينة تقع قرب البحر الأبيض المتوسط كنت أرى سواحله وحوله أشياء لم أعرفها، سألت الوالد ماهذه؟ قال: هذه مراكب. لقد اكتسبت في هذه الرحلة معلومات ثمينة وقيمة وأصبحت أعرف منازل الشمس والقمر والنجوم والاتجاهات: الجنوب والشمال والشرق والغرب وهناك مسميات أخرى تعلمتها من العقيلات ربما لا تندرج تحت المسميات المعروفة للاتجاهات مثل: القبلة وتحديدها على ضوء البلاد الموجود فيها ــ النسرى ــ الهيف ــ مطلع الشمس ــ مغرب الشمس واتجاهات السير على ضوئها.

خرجنا من المجدل واخترقنا بعض القرى الصغيرة وأخذ الخط يعتدل باتجاه الجنوب وبطلوع إلى مرتفعات تغطيها أشجار وظهرت بيوت مبنية بالطوب وألوانها بيضاء عرفت أنها جباليا، وتبعد عن غزة بنحو عشرين كيلو متراً، اقتربنا أكثر وكانت الأشجار كثيفة من التين ــ العنب ــ الصبار، والاتوبيس يسرع في السير، لكنه بدأ يهدىء من سرعته، لقد أقبلنا على طريق القطار وأشاهد المحطة على مسافة قريبة، توقفنا حتى مر القطار، وقد أخرج الوالد ساعته الكبيرة من جيبه ونظرا إليها سألته عن الساعة قال الساعة الآن السادسة إلا عشر دقائق، ودخلنا إلى أسواق غزة وسمعت السائق يصيح بأعلى صوته قائلاً: المحطة (الجاية الشجاعية) فأمرني الوالد بالتأهب للنزول فحطتنا قادمة أمام أحد الكراجات وتوقف الاتوبيس ونزل بعض الركاب معنا في هذه المحطة ودخلنا أحد الشوارع الضيقة في (الشجاعية) وهى محلة تقع شرقي غزة فيها سوق غزة الرئيسي ويسكن فيها العقيلات.

ومدينة غزة تعتبر نقطة التقاء العقيلات، منهم المقيم فيها منذ سنوات طويلة كوكلاء للعقيلات وسماسرة في الأسواق القريبة منها وتجتمع الإبل

القادمة في (بيارة) أبي العبد في (قوز غزة) والقوز هو المرتفع لأن الشجاعية تقع في منخفض مابين مدينة غزة و يقال لها (فوق المدينة) في الغرب والقوز في الشرق وإذا أراد الذاهب إلى المدينة أو القوز يأخذ الطريق طلوعاً وبيارة أبي العبد تقع في بسيط من الأرض الطينية وهي مزرعة كبيرة وقد حفر بها بئر ارتوازي وبناء حوله حوض كبير تسقي منه الإبل مقابل جعل من المال على كل رأس، ويبيع الأعلاف للمواشي وله صداقات مع العقيلات وهو من عائلة (بسيسو) من أهل غزة وتسكن محلة الشجاعية.

وله أيضاً بيارة صغيرة (مزرعة صغيرة) فيها أشجار التين والعنب والرمان تقع شرقي محلة الشجاعية وفيها طاحونة للدقيق وبئر وحوض كبير على شكل (الخان) فيه غرف كثيرة وأحواش لتربية الخيول يستأجره العقيلات والخويا والرعيان و يربطون به الخيول القادمة من الجزيرة العربية للتربية وتسفيرها إلى مصر بعد ذلك.

الإقامة في غزة

مدينة غزة من الأماكن التي يفضل العقيلات الإقامة فيها فهي تتوسط الأسواق الجنوبية لفلسطين مثل أسواق: الفالوجا ـ بئر السبع ـ خان يونس ـ رفح وهي أيضاً قريبة من الحدود المصرية ويسكنها الكثير من العقيلات ولهم فيها أعقاب ومن الذين يسكنونها عندما حضرنا إلى غزة: عبد العزيز العثمان العبيد ـ محمد الرميحي ـ محمد العبد العزيز الجاسر ـ سليمان أبا الخيل ـ فهد الفالح ـ محمد أبو زيد ـ إبراهيم العبد العزيز الجربوع ـ عبد الله الحمد الشبعان ـ إبراهيم البادي ـ يوسف البادي. أولاد عبد العزيز القفيدي، ومن الشبان الذين من أقراني: عبد العزيز إبراهيم الجربوع ـ محمف الصالح القفيدي، كنت ألهو معهم وعندما امتدت إقامتي ذهبت إلى مدرسة غزة مع عبد العزيز الجربوع ومحمد القفيدي وكان مدير المدرسة آنذاك من الأخوة الفلسطينيين وهو علي هاشم رشيد.

وأول كتاب مطبوع أخذته من المدرسة كان كتاب الجغرافيا الذي وجدت فيه تحديداً لبلادي لم أكن اعرفه من قبل من ناحية الموقع وعدد السكان وتعرفت أثناء وجودي في غزة على عبد العزيز الزعيم وكنا نلهو نحن الأربعة، وقد تعلمنا ركوب الدراجات وكنت أقضي ساعات كثيرة مع الحصان مرزوق الذي يوجد في حوش أبو العبد.

وكنا نسكن في محلة الشجاعة. وبيتنا يقع بجوار بيت عبد العزيز الجاسر ـ محمد الرميحي ـ إبراهيم البادي فائق بسيسو البيت مكون من غرفتين كبيرتين وصالة ومطبخ وحمام وحوش تظلله كرمة كبيرة هو مجلسنا في الصيف.

في إحدى الأيام تلقيت خبراً أزعجني ذلك أن الحصان (مرزوق) تقرر سفره إلى مصر مع قافلة مسافرة فذهبت إليه في خان بسيسو لأودعه الوداع الأخير ولم أكن أدري أننا سوف نلتقي بعد ذلك ولهذا حديث آخر.

كان الوالد يتركني في المدينة و يذهب إلى حيث أسواق السبع ـــ خان يونس ـــ دير البلح ـــ و يعود في المساء وأكون قد عدت من المدرسة وجهزت بعض الطعام والفاكهة.

لقد تعلمت الاعتماد على النفس ـــ من غسل الثياب إلى الطبخ وعمل القهوة والشاي وأثناء غياب الوالد أحضر مع عبد العزيز الجربوع إلى البيت ونعد طعام الغداء وهو غالباً مايتكون من المكرونة باللحم أو بعض الخضار مع العيش وفي بعض الأحيان كنت أذهب إلى بيت إبراهيم الجربوع حيث يسكن إلى الشرق من سوق غزة.

كان الوالد كما قلت يذهب إلى الأسواق أيام الاثنين والأربعاء والخميس، أما يوم الجمعة فهو سوق غزة الرئيسي وفي هذا اليوم لابد أن نكون في السوق حول الإبل.

وفي ليالي رمضان بفلسطين تقام الصلوات للتراو يح وكنت أذهب إلى المسجد وقد أعجبني صوت المرحوم الشيخ عمر بسيسو شيخ الجامع وقاضي غزة وهو لايبعد عن بيتنا سوى أمتار قليلة، وكان للوالد صديق من أهل غزة يسمى أبو عطا له متجر يبيع الأقمشة والمنسوجات وصاحب بقالة اسمه عم عبد القادر كنت أشتري منها لوازم البيت وإذا أردت الفاكهة أو الخضروات فلها سوق مستقل وكنت أرى أكوام البرتقال في الشتاء واشتريت عشرين برتقالة بقرش واحد، أما الموز فالكيلو بقرشين والعنب بقرش ونصف وسلة التين البحري تزن خمسة كيلو بخمسة عشر قرشاً، وحمل جمل البطيخ بأربعين قرشاً، فيه عدد خمسة عشر بطيخة لايقل وزن الواحدة

عن خمسة كيلو جرامات، وكان كيلو اللحم المشفي بدون عظم بخمسة وعشرين قرشاً، أما الخضار فلا يكلف أكثر من القرش للكيلو، تلك كانت المعيشة في تلك الفترة.

أما موقع البيت فهو قريب من شارع الشجاعية العام المؤدي إلى بئر السبع ومحطة القطار تقع مابين مرتفع المدينة التي تتركز فيها البنوك والمحلات التجارية الكبيرة والمطاعم والمقاهي ومابين محلة الشجاعية.

عشت في مدينة غزة فترة من الوقت تعرفت فيها على شوارع المدينة والمقاهي والمطاعم ودور السينما التي لم أدخلها في حياتي، وكنت ورفيق صباي عبد العزيز الزعيم نخرج يوم الأحد فهو العطلة الرسمية للمحلات التجارية ونذهب إلى السينما واسمها (سينما السامر) ولأول مرة أشاهد الأفلام العربية، وكانت مصر تصدر جريدة مصرية مصورة تسمى (جريدة مصر الناطقة) توزع على البلاد العربية كنت حريصاً على متابعة هذه الجريدة فقد رأيت لأول مرة جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز وهو يلقيأول خطاب في هيئة الأمم المتحدة وشاهدت زيارة جلالة المغفور له الملك سعود إلى لندن فخوراً وأنا أسمع الصالة تضج بالتصفيق وهي تستقبل كلمة الملك فيصل أو وهي تتابع زيارة الملك سعود.

فكنت أحرص على يوم الأحد هذا حتى أتمكن من رؤية هذه الجريدة الناطقة وأذكر أنني حرمت من متابعة هذه الجريدة طوال أسبوع نظراً لأنني كنت قد استأجرت دراجة أنا وعبد العزيز الجربوع فوقعت منها في حفرة أحدثت أثراً في رجلي ومنعتني من المسير حتى جاء إلى عبد العزيز الزعيم وهو يحمل إلى مجلة عربية لاأعرف اسمها الآن لكنها مجلة عربية مصورة فيها صور للملك فيصل وهو يوقع ميثاق الأمم المتحدة وفيها صور للرئيس أيزنهاور وهو يدخل مدينة (اوكيناوا) في اليابان عندما احتلها

الحلفاء كنت سعيداً بقراءة هذه المجلة لدرجة أنني احتفظت بها لأشهر عديدة.

أما كتاب الجغرافيا فقد حفظته عن ظهر قلب فقد عرفني بحدود بلادي وتعداد سكانها ومواردها، لقد بقيت آثار هذه الذكريات عالقة في ذهني إلى الآن ولازلت احتفظ بذاكرتي تلك الذكريات الجميلة عن مدينة غزة: مناظر البساتين والبيارات وأشجار التين والعنب والزيتون على كثبان الرمال غربي غزة، أذكر أنني وصديقي الزعيم قد ذهبنا إلى البحر مستقلين الاتوبيس من المحطة إلى قرب البحر، وكان معنا ابن عمه يدعى رشيد وبقينا على الشاطى من الصباح حتى قرب العصر وقد نزل رشيد إلى البحر وكاد أن يغرق لولا رجال الإنقاذ ومن يومها حرم علي الوالد الذهاب إلى البحر.

أما عن مجتمع العقيلات في غزة فكانوا يذهبون إلى الأسواق ثم يعودون في المساء وبعد صلاة المغرب نذهب إلى بيت عبد العزيز الزنيدي حيث يجتمع العقيلات يتسامرون إلى مابعد منتصف الليل وكنت معهم أرى وأسمع مايدور من أحاديث تبتدىء بأسواق الإبل والبيع والشراء وتنتهي بمشاجرة بين إبراهيم البادي وأخيه يوسف فكل واحد منهما كان يميل إلى قائد من قواد الحرب فهذا يميل إلى رومل القائد الألماني وهذه يميل إلى منتجومري القائد البريطاني حتى يتدخل أحد العقيلات و يفض هذه المشاجرة بحديث آخر.

أذكر أنه كان للمرحوم عبد العزيز الزنيدي وهو من أهل الزلفي ابن اسمه سعود قد تشاجر مع أحد أقرانه من أبناء غزة فشج رأسه فاشتكى إلى قسم البوليس في الشجاعية وحضر القائد إلى بيت الزنيدي وكنا موجودين وسعود قد إختبأ في المنزل فجاء قائد المخفر يبحث عنه بنفسه وطرق باب منزل الزنيدي فدخل ولكنه فوجيء بهذا الجمع من العقيلات الذين طلبوا

إليـه أن يتفضل معهم لتناول القهوة والشاي فرحب وجلس معنا يسأل عن أحـوال البيع والشراء وعن وجود العقيلات وكان اسمه (الليفتنانت جيمز) يجيـد التحدث بالعربية بطلاقة، بادر الوالد وهو أكثر المتحدثين إليه: كيف تجلـسون في هذه البلاد وبلادكم سيكون لها شأن عظيم (فقد بدأ البترول يتـدفق) فرد عليـه الوالد نحن الآن في بيعنا وشرائنا وقد تعودنا على هذه الأعمـال منـذ فترة طويلة فهز رأسه قائلاً: أنا أعرف العقيلات وهم أهل الخيل في مصر فقد كنت أعمل في مصر قبل حضوري إلى فلسطين.

أمر القائد الانجليزي بأن يحضر والد الشاب الفلسطيني إلى حيث نجلس وعمـل صلـح عرب فيما بين الزنيدي ووالد الشاب وانتهى هذا الموضوع إلى خير.

ومن الأشيـاء التي لازالت عالقة في ذهني منظر رجال البوليس وهم يجوبـون شوارع غزة بموسيقاهم وطريقة سيرهم فكنت أرقب يوم السبت وأذهب إلى دكـان أبي راشـد الزعيم في الشـارع العـام حتـى تقبـل (التشريفة) هكذا عرفت اسمها.

ومن الأشيـاء التي لفتت نظري آنذاك أثناء موسم الحج خروج الناس بطبولهم وموسيقاهم يزفون هذا الحاج أو هذه الحاجة حتى تصل إلى محطة القطار بغزة فكنت أتابع هذه المسيرات حتى يستقل الحجاج القطار متوجهين إلى السويس للسفر على البواخر المتجهة إلى جدة لإداء فريضة الحج.

كنـت أتابـع سيـدة عجوز تحمل عصا وتعلق في عنقها مناديل وسبح تجوب الشوارع وتقول كلاماً لم أستطع تبينه، إلا بعد أن سألت صديقي وإذا هي المسئولة في هذه المحلة إذا تاه صبي أو ضلت ضالة تعلن بصوتها عن المفقود ويتجمع حولها الصبية وأنا معهم حتى استطعت بعد فترة أن أعرف ماذا تقول.

ومن العادات التي عرفتها عادة الطهور فالولد يطهر بعد أن يبلغ سن الثانية عشر تجد الزينات معلقة والاهازيج والغناء.

أما عادة الزواج فإن الخاطب يحضر أباه إلى أهل الزوجة ويطلب يدها فإذا تمت الموافقة يطلب أهل العروس مهراً يعادل أوقية أو أوقية ونصف من الجنيهات، ويتم الوزن أمام جمع من عائلة العريس والعروس، ثم يقول الكبير من أهل العريس لقد وفينا حق ابنتكم فماذا يكون حقنا وهنا يقوم والد العريس بفرش منديل أبيض فيقوم والد العروس بوضع نقود فيه ثم تتابع بقية العائلة بوضع النقود ويخرج العريس وقد جمع أكثر مما دفعه مهراً لأهل العروس.

ثم تخرج زفة للعريس من بيت عروسه إلى بيته ويحدد كتب الكتاب ثم تأتي ليلة (الحنا) فالعروس والعريس يضعان الحناء في أيديهما وأرجلهما، تلك عادات وتقاليد عرفتها، فالعادات والتقاليد العربية لازال الكثير من البيوتات العربية متمسكة بها، منهم المحافظ الذي لاتظهر نساؤه سافرات، ومنهم الذين جرفتهم المدنية فنجد الخليط من المحجبات والسافرات. كنت في أول الأمر يصيبني الخجل من رؤية البنت السافرة أو التي تقود سيارة وبعد فترة ألفت هذه المناظر.

أذكر أنني كنت أركب الاتوبيس إلى فوق المدينة فلم أجد كرسياً خالياً إلا بجوار إحدى البنات فأنفت الجلوس لكنها أشارت إلي بالجلوس وترددت ولم ينقذني من ذلك الخجل إلا وقوفها ونزولها بإحدى المحطات.

ذكريات مرت بشاب خرج لأول مرة في حياته من مجتمع تحكمه العادات والتقاليد والتمسك بالأخلاق إلى مجتمع تختلف فيه العادات والتقاليد في طرق المعيشة والأختلاط لكنه بحمد الله كان يعيش على تراث من الأخلاق والفضيلة أصلها الآباء والأجداد تلك نعمة من الله.

مضى على وجودنا في غزة أكثر من أربعة شهور والوالد في بيعه وشرائه وأنا أذاكر وأدرس وأترقب حتى جاء اليوم الذي فاجأني الوالد به بأننا سوف نسافر إلى عمان، قال هذا الخبر وكنا مع مجموعة من العقيلات في بيارة أبي العبد، نرقب وصول عبد الله الدبيخي وعلي الغصن قادمين من عمان، وصلت الإبل ووجدت معها محمد الدبيخي وإبراهيم الغصن وهما من أقراني، فدخلنا إلى غزة وأمضيت أسبوعاً مع محمد الدبيخي وإبراهيم الغصن ولهونا كثيراً وعرفتهما على السينما والبحر والأماكن التي لم يكتشفاها بعد وكانت فترة سعيدة أمضيناها سوياً وتفرقنا: فإبراهيم الغصن سافر مع والده إلى مصر، ومحمد الدبيخي عاد إلى عمان وبقيت وحيداً مع والدي وعبد الله الدبيخي رحمهما الله، وكنت أكتب له الرسائل إلى ابنه عثمان في العراق وكانت له طريقة في الرسائل أكتب له رسالة وهو يملي علي وإذا كتبت سطراً قال (اقره) يعني أعيد قراءة ماكتبت وتكرر هذا أكثر من عشرين مرة وأنا أكتب وأعيد ماكتبته.

تحدد سفرنا إلى عمان بعد عيد الأضحى، فركبنا الاتوبيس من محطة غزة متخذين طريق غزة — الفالوجا — بيت دجن — القدس. طوال الطريق كان الاتوبيس يتوقف أمام نقاط التفتيش وبوابات يقف عليها جنود انجلين، فيدخل الضابط المسئول إلى الاتوبيس ويطلع على هويات الركاب حتى إذا جاء الدور على الوالد أبرز معه ورقة مكتوب فيها اسمه واسمي يعيدها مع كلمة (شكراً)،وتكرر هذا التوقف للمرة الخامسة وقادني الفضول إلى معرفة مابهذه الورقة فتناولتها من الوالد وكان حريصاً على حفظها في جيبه وقرأتها وإذا مكتوب فيها (باسم جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا الحاكم العام لامارة شرقي الأردن) يصرح للسيد/مسلم إبراهيم الفرج المسلم وابنه إبراهيم — من رعايا جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود بالتجول داخل فلسطين وامارة شرقي الأردن مع الرجاء

من ممثلي جلالته بتسهيل مروره. ومكتوب بالنص الانجليزي والتوقيع ــ جلوب باشا ــ الحاكم العام.

بعد أن قرأتها تناولها الوالد في رفق وأعادها في حزام كبير كان يضعه على بطنه ووصلنا إلى مشارف مدينة القدس، وكانت التماثيل الكبيرة على رؤوس الجبال وقال لي الوالد هذه صورة مريم وابنها. وكانت الشوارع فسيحة والعربات كثيرة، وأذكر أن الوالد نهرني وأنا اتطلع من شباك الاتوبيس أن لا أظهر رأسي أو يدي من الشباك فقد كان أحد العقيلات وهو عبد الرحمن الشايع يركب الاتوبيس وأظهر يده وكانت سيارة قادمة واصطدمت بالسيارة التي يركبها وفقد يده.

وصلنا إلى باب العمود في القدس وبه يتوقف الاتوبيس، في هذه المحطة نزلنا أمام مكتب للشركة صاحبة الاتوبيس ودخلنا إلى أحد الشوارع التجارية الكبرى وبدأ الوالد يعرفني على معالم المدينة، آخر هذا الشارع يؤدي إلى القدس الجديدة وهذا باب العمود وهناك بيت المقدس وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة، وأخد الوالد يسرع الخطا إلى حيث أحد المحلات التجارية فتوقفنا أمامه وكان مكتوب عليه (شريف وعلمي)صراف، دخلنا المحل وتعانق الوالد مع أحد أصحاب المحل وبادلنا الرجل الآخر بتحية وفك الوالد حزامه وناوله صاحب المتجر وأخذ منه عشرة جنيهات وأمام المحل جاء شخص ثالث أدى التحية وسأله (علمي) إن كان هناك حجرة بالفندق خالية رحب بنا الرجل وذهبنا معه إلى الفندق وهو مكون من أربعة طوابق ودخلنا إلى بهو الفندق وأمام الاستعلامات سلمه الوالد ورقة الهوية وأعطانا ورقة مكتوبة أخذتها من الوالد وقرأتها: اسم الفندق (فندق باب العمود) دخلنا إلى إحدى الغرف في الطابق الثاني وتوضأنا وتركنا الفندق إلى المسجد الأقصى للزيارة.

دخلنا المسجد الأقصى من البوابة الشرقية إلى صحن المسجد فأدينا تحية

المسجد وقمنا بزيارة قبة الصخرة وسمعنا آذان العصر، فعدنا واشتركنا مع المصلين لصلاة العصر وبعد أن فرغنا خرجنا من بوابة المسجد الغربية على شوارع ضيقة عرفت أن اسمها حارة اليهود ثم دلفنا إلى مبني مرتفع، عرفني والدي بأن كنيسة يؤمها النصارى وأن هذه الكنيسة كان قد زارها الخليفة عمر بن الخطاب عند فتح القدس وتسمى كنيسة القيامه.

دخلنا إلى أحد المطاعم وتناولنا طعام الغداء وهو عبارة عن لحم مشوي، وخضار وخبز وسلطة، وفي إحدى المقاهي جلسنا وشربنا الشاي الأخضر، وبينما نحن نهم بترك المقهى توقف أمام الوالد شيخ معمم يقول بلهجة غريبة (مسكين يارجل سوف تخسر بضاعتك وتفارق من تحب) هكذا قال الرجل بدون مقدمات لكنني سمعت الوالد يقول: كذب المنجمون ولو صدقوا عرفت أن هذا الشيخ (مغربي) يقرأ الطالع.

منذ فارقنا المقهى والوالد يفكر فيما قاله الشيخ وهو يردد حسبي الله ونعم الوكيل و يتمتم بآيات قرآنية.

عدنا إلى التجوال في المدينة لكن الوالد عاد إلى محل (شريف وعلمي) وأخذ الحزام منه قائلاً: سوف نغادر إلى عمان، ماهذه العجلة يابو إبراهيم، هكذا بادره الرجل قال هذا أمر الله، ذهبنا إلى الفندق وناوله الحساب، وتوجهنا إلى باب العمود وفي إحدى سيارات الأجرة الصغيرة ركبنا مع السائق وانتظرنا حتى اكتمل العدد وغادرنا القدس في نحو الساعة الخامسة والشمس لازالت ساطعة، فهبطنا من جبل القدس وكان الطريق منحدراً إلى حيث الغور (مجرى نهر الأردن) وصلنا إلى مدينة أريحا واتجهنا إلى جسر اللنبي، وعند نقطة العبور توقفنا أمام البوابة ونزل جميع الركاب سائرين على الأقدام إلى نهاية الكوبري (الجسر) وأمام نقطة تفتيش الأردنية أظهر الوالد الهوية فختمت وتوقفنا بانتظار انتهاء زملاء الرحلة ثم ركبنا السيارة وكانت الشمس قد غربت، وأقبلنا على بلد رأينا

أنواراً تلوح فعرفت أنها (الشونة) شونة بني عدوان فتوقفنا قليلاً، وكان الوالد لازال يفكر وأرى قسمات وجهه تنم عن شيء ما، والسيارة بدأت في طلوع جبال الأردن هاهي مدينة السلط ــ صويلح وأخيراً عمان،وفي المحطة استقلينا (التاكسي) إلى حيث رأس العين وبيوت العقيلات فذهبنا إلى بيت حمد السعيد في عمان

استقبلنا حمد السعيد مرحباً وفي إحدى الغرف وضعنا امتعتنا ودخلنا إلى المجلس وعلى ضوء النار بدأ الوالد يقص على حمد قصة (النبوءة) والمغربي فرد عليه لا تأخذ في بالك، كل هذه أوهام. بتنا ليلتنا وفي الصباح خرجنا إلى رأس العين وقابلنا العقيلات الموجودين: محمد الفايز ــ منصور الجربوع ــ فهد القسومي ــ صالح القسومي ــ سليمان الصبيحي، واستأجرنا أحد البيوت، وفي المساء كان الاجتماع في بيت سليمان الصبيحي وحضر منصور الجربوع وكان معه يومئذ ابنه سليمان واشترى الوالد رعيتين من الإبل من حمد السعيد بسعر ثلاثة وعشرين جنيها للرأس واشترى بعض الإبل من السوق وتجهزت الإبل إلى النزول إلى الغور (للمشتى).

الفصل الرابع

التشريق

مدينة غزة هي نهاية المطاف بالنسبة للعقيلات الذين صرفوا إبلهم، يعودون إلى عمان و يتجهزون، قوافل منهم تذهب إلى الوطن على الركائب، لايحملون شيئاً، ومنهم من يخرج بجملة من أنواع البضائع المختلفة، و يسمى التشريق أي يتجهوا إلى الشرق حيث المملكة العربية السعودية.

ومنهم من يتجه إلى العراق بالسيارات بقصد شراء الإبل والمواشي والخيل من مدن العراق المختلفة ثم يعود سيرته الأولى إلى فلسطين.

ومنهم من يشتري م العراق بضائع مختلفة ومواد غذائية و يعود إلى الوطن يصرفها ثم يعود بعد ذلك إلى شراء الإبل من أسواق القصيم.

أما التجار الذين لم يوفقهم الحظ في نهاية مطافهم كما حدث لنا فإنه يعود إلى عمان و يشتري الإبل من أسواق عمان لتسويقها في أسواق فلسطين، أو أسواق مصر، وإذا ماحل الشتاء عادوا إلى عمان واشتروا الإبل ونزلوا بها إلى الغور.

وتعتبر هذه رحلة أخرى يقضي فصل الشتاء في (غور الأردن) حيث الدفء، والكلأ، وإذا ماحل الصيف بدأت أسواق فلسطين.

قلت إننا عدنا إلى عمان في يوم السبت ١٨ ذو الحجة ١٣٦٤هـ/الموافق ٢٤ نوفبر ١٩٤٥م، ومن أسواقه اشترى الوالد رعيتين من حمد الحمد السعيد، وكان قادماً بها من أسواق العراق، واشترى بعض الإبل من أسواق عمان استعداداً للنزول بها إلى الغور وقضاء الشتاء فيه حتى حلول أسواق فلسطين.

وقد أقنا في عمان طوال شهر الحجر ١٣٦٤هـ، ونزلنا إلى الغور (وادي الأردن) يوم الأربعاء ٧ محرم ١٣٦٥هـ.

الغور

الغور هو مجرى وادي نهر الأردن تحيط به جبال القدس من الغرب، وجبال الأردن[1] من الشرق، حيث جرى فيه ثلاثة أنهار هي: الحصباني، اللدان، بانياس، وتصب في بحيرة الحلولة حيث المستنقعات التي تنبت فيها أشجار البردي ثم يهبط النهر إلى الجنوب بانحدار شديد حتى يصل إلى بحيرة طبرية التي ينخفض سطحها عن مستوى البحر نحو ٦٨٢ قدماً ثم يصب في بحيرة (لوط) وتنخفض عن سطح الأرض بنحو ١٢٩٢ قدماً وتبلغ أعمق نقطة في بحيرة لوط إلى ٢٦٠٠ قدم عن سطح الأرض وهذا الوادي يعرف باسم الغور.

وقد عرفه ياقوت بغور الأردن وهو وادي مسيرة ثلاثة أيام وعرض أقل من نصف يوم فيه نهر الأردن يشقه في طوله من أوله وهو بحيرة طبرية وآخره البحر الميت أو بحيرة لوط.

ويقول عنه الرحالة ابن بطوطة[2] سافرت بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه.

ومهما قيل عنه قديماً فقد شتينا في الغور أكثر من أربعة أشهر بداية من أول الشتاء حتى أول الصيف أول وصولنا إليه من عمان. كان الجو بارداً وكلما هبطنا إلى بطن الوادي ارتفعت الحرارة ونزعنا ماكنا نلبسه من الملابس الشتوية وفي الشتاء كنا نرى الجبال من غربنا وشرقنا وقد تغطت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥٠.

(٢) تحفة النظار في غرائب الأمصار جـ ١ ص ٨٠.

بالثلوج ووصلت درجة الحرارة فيها إلى ٦ درجات تحت الصفر بينما درجة الحرارة في الغور تصلإلى ٢٥ درجة.

وقد تعدد الروايات حول اسم الغور وقد أطلق عليه البعض وادي جهنم وتحضرني قصة كان الوالد يرويها يقول: كان أحد العقيلات قد أصيب بمس من الجن وكنا مدعوين لدى أحد العقيلات في مدينة بريدة ــ فأصابه المس وحاولت ومعي بعض الرفاق من أن نتعرف على مابه فبدأنا نتحدث معه قال (الجنى) أو الجنية قد داخلته في إحدى قرى فلسطين الشمالية وحاول أحد الرفقاء قراءة القرآن أو الاستعانة بأحد ممن يعرفون مايقال في هذه الحالة وعندما نطقنا باسم الله وتلونا القرآن الكريم وإذا المس يتكلم قائلاً أعطوني فرصة للخروج.

يقول الوالد سألت (الجنية) كم يستغرق ذهابك إلى مكانك في فلسطين قال: لاأكثر من خمس دقائق إلا إذا اعترض طريقي أحد (بوادي جهنم) فقد يستغرق أكثر من ذلك فأردت أن أعرف ماهو وادي جهنم قالت (الغور) أليس فيه شجر يعرف باسم شجر الزقوم.

لازلت أذكر هذه القصة حتى أنني عندما وصلنا الغور سألت الوالد عن شجر الزقوم فعرفني بها: أشجار خضراء فيها شوك كثير لاتقربها الإبل.

الجلس [1] الغليظ من الأرض، والجلس علم لكل ماارتفع من الغور، قال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا خالد بن النضر القرشي قال حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا كثير بن عبد الرحمن بن جعفر بن عبد الله بن كثير بن عمرو بن عون المزني عن أبيه عن جده بلال بن الحارث المزني قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فخرج لقضاء حاجته وكان إذا خرج يبعد فأتيته بإدواة من ماء فانطلق.

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ١٥٢.

فسمعت عنده خصومة رجالاً ولغطاً ولم أسمع مثله فقال: بلال. فقلت: نعم. قال: أمعك ماء؟ قلت: نعم. قال: أصبت. فأخذه مني وتوضأ.

قلت يارسول الله سمعت عندك خصومه ولغطاً ولم أسمع أحداً من ألسنتهم قال اختصم عندي الجن المسلمون والجن المشركون وسألوني أن أسكنهم فأسكنت المشركين الغور وأسكنت المسلمين (الجلس) قال عبد الله بن كثير قلت لكثير ما الجلس وما الغور؟ قال الجلس القرى والغور مابين الجبال والبحر قال أعرابي:

وكنت امرأ بالغور مني زمانه
وبالجلس أخرى ماتفيد ولا تبدي

فطوراً أكر الطرف نحو تهامة
وطوراً أكر الطرف شوقاً إلى نجد

ولعل هذا القول يؤكد الرواية التي ذكرتها قبل حول الغور والجن، وعودا إلى الرحلة.

جهز العقيلات إبلهم ونزلوا إلى الغور للمشتى ــ كان معنا رعيتين اشتراها الوالد واشترى بعض الجمال من سوق عمان.

كان مقامناً في مكان يعرف الآن (بالنصيرات) وفيه حدثت موقعة الكرامة فيما بعد بين الفدائيين الفلسطينيين واليهود وهو يبعد حوالي عشرون كيلو متراً إلى الشمال من مدينة الشونة وإلى الغرب من مصب نهر الزرقاء إلى الغور في الضفة الشرقية لنهر الأردن.

كانت المجموعة تتكون من شراعنا وشراع إبراهيم المطوع وعبد الرحمن الزايدي وعبد الله اللهيب وعبد الله العثمان الدبيخي، ومنصور الجربوع.

شراعنا كان يضم محمد أبو يوسف مسئول عن الأكل وصالح العقل مسئول عن القهوة والشاي ومعنا فهد المنيف من الخويا والرعيان عواد الشمري ومعه ملحاق عبيد الله شمري أيضاً.

أما شراع إبراهيم المطوع فيضم محمد الهبوب وإبراهيم الغضية وراعياً وملحاقاً وسليمان الزايدي قهوجياً وشراع عبد الرحمن الزايدي يضم مسؤولاً عن الأكل وقهوجياً ومعه من الخويا إبراهيم الزومان، وعبد العزيز الزومان وملحاقاً وراعياً للإبل.

شراع عبد الله اللهيب يضم مسؤولاً عن الأكل: عبد الله السليمان الغيث، وقهوجياً واثنين من الرعيان والملاحيق.

شراع عبد الله العثمان الدبيخي يضم: عبد الله الدبيخي، وطباخاً وقهوجياً وراعياً وملحاقاً وقد نسيت بعض الأسماء من الخويا الذين كانوا يرافقونه.

امتدت إقامتنا في شرقي نهر الأردن أكثر من شهرين وكان المطر قليلاً خلال تلك الفترة والأرض قليلة المراعي مما اضطررنا إلى البحث في الضفة الغربية عن المراعي وهكذا تم عبورنا إلى الضفة الغربية.

أقمنا مابين الفارعة وأريحا وقد انضم إلينا حمد المحمد العبيد ومعه رعية من الابل وإبراهيم العبد العزيز الجربوع، وعبد الله العبد العزيز العبيد.

وفي موقعنا الجديد في الضفة الغربية كانت المراعي جيدة والجو قد بدأ يميل إلى البرودة حيث حل فصل الشتاء.

العواصف

جاء فصل الشتاء يحمل عواصف لم يعرفها أهل الغور، هبت علينا عاصفة شديدة وحل البرد على غير العادة ولم يكن موجوداً من التجار سوى أبنائهم والخويا. وقد اقتلعت العاصفة الخيام وشطرت الكثير منها إلى نصفين وبقينا في العراء إلا من أغطية جمعناها من هنا وهناك، ونزلت الأمطار لمدة أربعة أيام ولم يبق من الخيام مايقينا من المطر، سوى بيت من الشعر خاص بعبد الله اللهيب اجتمعنا به وفي ذراه اتقاء للأمطار واخذت الثلوج تتساقط على جبال الأردن وجبال القدس، وكان البرد في الغور قاسياً وليس لدينا مايحمينا من هذا البرد الذي لم نتوقعه فحاول البعض الذهاب إلى أريحا والحصول على بطاطين وأغطية، وكان الطريق إلى القدس وعمان قد توقف، فقد ارتفعت مياه نهر الأردن بدرجة غطت معها الأشجار التي حوله، فاجتمعنا نتدارس الأمر، أكثرنا من الشباب الذي فوجيء بما لا يستطيع معه التفكير في شيء.

بادرني أبو يوسف بقوله سأسافر إلى عمان، رد عليه الجميع كيف تذهب إلى عمان وطرق المواصلات مقطوعة، ودرجة الحرارة وصلت إلى ٢٠ تحت الصفر (الشريعة) نهر الأردن غطى الأشجار ولا تستطيع تحديد مجراها الأصلي، كيف السبيل إلى عبور الشريعة هكذا قلت وشاركني في قولي حمد العبيد وعبد الله العبيد وعبد الله الغيث وبقية الخويا. رد علينا خلوها على الله.

إن مجرد التفكير في الذهاب إلى عمان لهو ضرب من الجنون، لكنه لم يترك لنا فرصة للتفكير، انطلق مسرعاً وليس عليه من الملابس إلا القليل،

وغاب عن عيوننا انقطعت أخباره يومين أو ثلاثة ونحن نحاول أن نجد وسيلة أخرى، تقينا هذا البرد القارس الذي لم يعتد سكان الغور منذ سنوات طويلة، هكذا قال لنا الشيخ عبد الفتاح من قبيلة بني صخر الذي بادر إلى نجدتنا بأحد البيوت الكبيرة نصبناها وبعض الأغطية والمواد الغذائية التي دمرها المطر، ولم يبق لدينا القوت اليومي وبذهاب أبي يوسف أصبحت مسئولاً عن إعاشة عشرة أفراد، فكان علي أن أقوم بعمل (الخبز) والطبخ ومكثت أصحو من نومي قبل صلاة الفجر وأحضر الدقيق وأعجنه الماء وأتركه وأجهز القهوة والشاي ثم أعود إلى تجهيز العجين وأوقد نار الصاج وأول مرة فشلت في صنع الخبز، لكن الحاجة أم الاختراع وتعلمت من عبد الله الغيث صناعة الخبز وإعداد الطعام للخويا وارعيان لمدة عشرة أيام هي غياب أبي يوسف عنا.

وبعد عشرة أيام عاد أبو يوسف على سيارة محملة بالشرع والمواد الغذائية وبقدر ماكانت فرحتنا بما أحضره من نجدة نحن في أشد الحاجة إليها كان سؤالنا له كيف نجا من هذا الموت المحقق.

بعد أن بنينا الخيام طلبنا إليه أن يقص علينا رحلته يقول: بعد أن تركتكم وقفت أمام الشريعة متردداً كيف لم أحضر بعض الملابس تقيني هذا البرد القارس، لكنني سألت نفسي، وإذا كان معي ملابس ثقيلة فكيف أعبر مع هذه الأمواج المتلاطمة؟ أشجار تقذفها المياه من هنا وهناك مواشي أبقار وأغنام جرفتها المياه، بدأت ألتمس طريقي في أحد المنخفضات أعرف أن معبر النهر إلى الجنوب من بيوت (النصيرات) فقد ترددت معه كثيراً (سميت بالله) وقفزت إلى الماء وأخذت دوامات تقذف بي يميناً وشمالاً أخذتني المياه المنحدرة ولم اخرج إلا قرب جسر اللنبي (المسافة بين بيوت النصيرات وجسر اللنبي تبعد حوالي خمسة كيلو مترات)، ارتميت على الشاطىء الشرقي حوالي السارة وأنا أحس أن رجلي لاتحملان

جسدي، وبعد أن استرحت قليلاً مشيت باتجاه (شونة بني عدوان) وقبل أن أصل إليها وجدت بيوت بني صخر. دخلت إلى أحد البيوت وارتميت على الأرض لاأعرف ماذا حدث، أفقت على صوت صاحب البيت وهو يقول لي الحمد الله على السلامة، وجدتني ألبس ملابس ثقيلة (وفروة) لم أكن ألبس هذه الملابس من قبل، قص علي الرجل أنه أغمى علي من شدة البرد وقام هو وأبناؤه بنزع ثيابي المبتلة واستبدلوها بملابس ثقيلة ولم أفق من نومي هذا إلا في اليوم التالي.

قصصت عليه قصتي وكان الرجل كريماً فأعطاني ملابس ثقيلة وحذاء واستأذنته في مواصلة السفر فأشار علي أن أبقى فان طريق السيارات القادمة من القدس إلى عمان أو الذاهبة من عمان إلى الغور قد توقفت لكنني لم أسمع نصيحته وتوكلت على الله باتجاه الشونة، لكنني وجدت المدينة شبه خالية فاتخذت طريق السيارات طلوعاً إلى جبل الأردن، وأخذ الطريق في منعطفات تدور يميناً ويساراً وأنا (عجل) على عجل من أمري، حاولت اتخاذ طريق أقصر أختصر منها هذه المنعطفا وأنا أعرف هذه الجبال، قابلتني عاصفة من الثلج، بدأت رجلاي لا تقويان على حملي، فكنت أحس وكأنني أحرك كتلا قوية من الاحجار تشدني إلى الأرض.

حاولت أن أشق طريقي: الثلج سميك في بعض الأراضي لكنه رخو في بعض المنخفضات، مضى علي قسم كبير من الليل وأنا أتحسس طريقي إلى السلط، أسمع حفيف العاصفة وأصوات المياه تنحدر إلى الوديان.

زادت حدة العاصفة، وجدت أمامي أحد هياكل السيارات المحطمة في أحد الشعاب. حاولت أن أدخل في داخلها لاحتمي من العاصفة النافذة مغلقة، شققت بيدي الثلج وتمكنت من فتح كوة، دخلت إلى داخل السيارة وأنا أرتعش من البرد، بحثت عن أحجار محاولاً إحداث شرارة توقد

النار، قطعت قطعة من قماش ثوبي ووضعتها بين الاحجار ولكن القماش مبلل، هيهات.

فقدت الأمل في إيقاد النار، وخشيت أن يقفل الثلج منافذ السيارة وأموت داخلها، خرجت ثانية إلى حيث مصيري الذي اخترته مستعيناً بالله، نزلت من أحد المنحنيات أجري فانقلبت على ظهري لكن الله سلم، العاصفة تهدأ وقد بان ضوء القمر خافتاً بين السحب لكنه أنار لي الطريق فبدأت أعرف اتجاهي الصحيح، أنوار مدينة السلط بدأت تلوح لي على البعد لكنها كالسراب، من منخفض إلى مرتفع حتى وصلت أول بيت من المدينة صادفني، وزحفت على سلم البيت زحفاً أطرقه بشدة وكان هذا آخر علمي.

بعد أن أحسست بالدفء يسري في عروقي فتحت عينيّ لأجد أحد الرجال ومعه بعض النسوة يحاولون نزع ملابسي المبتلة، صرخت بهم ماذا يفعلون قالوا الحمد الله المسكين (عم بيهذي) استأذنت من الرجل في إبعاد النسوة وأعطاني بعض الملابس، نزعت ثيابي المبتلة ولبست قيصاً وفنيلة من الصوف لكن البنطلون لم يدخل برجلي، فقد أحسست أنها قد قطعتا وأنني أحمل كتلا من الحجر، قطعت رجلي البنطلون وأدخلته وتغطيت ببطانية من الصوف وحول النار بدأت أقص لهم رحلتي فتعجبوا لهذه المخاطرة، سألتهم هل هناك سيارات تصل السلط قالوا منذ ثلاثة أيام والخطوط مقطوعة، ولم تصل إلينا سيارات، شربت الشاي وأكلت بعض الأكل وحاولت أن أدفيء رجلي حول النار، نزعت الجزمة والشراب فوجدت رجلي قد تفطرتا وسالتا بالدماء، أحضر لي صاحب البيت قليلاً من الزيت والملح وقربه إلى النار وصببته على رجلي وأخذت أدلكهما حتى بدأت أحس بالدماء تصل إليهما.

أقمت لدى صاحب البيت أكثر من ست ساعات أحسست بالدفء

وبدأت أقلب أموري هل أذهب على طريق السيارات إلى حيث بلدة صويلح وهيلا تبعد عن السلط سوى ثلاثين كيلو متراً تقريباً أو أختصر الطريق إلى راس العين التي هي إلى مطلع الشمس من السلط، وكانت العاصفة هادئة واخترت أن أختصر الطريق من منخفض إلى مرتفع حتى وصلت إلى قرية تسمى (العليه) وصلت إليها مابين العصر والمغرب واسترحت قليلاً لكن صاحب البيت أشار علي بالبقاء حتى الصباح فان مخاطر السير بالليل كثيرة خاصة وأن المنخفضات إلى رأس العين كثيرة ووجدت الرجل كريماً، وخشيت على نفسي أن يحدث لي ماحدث في السلط، ونمت ليلتي وفي الصباح الباكر ودعت الرجل ونزلت وكان صادقاً فيما أشار إلي فيه فإن المنخفضات كثيرة، ووقعت في أكثر من مرة وأنا أتحسس طريقي بين كتل الثلج، بدأت عمان تلوح لي على البعد وكانت العاصفة أقل مما كانت عليه في الأيام السابقة، المزارع من حولي كثيرة وقبل الظهر وصلت إلى إحدى المزارع وارتميت في أحد البيوت، رجلاي بدأتا لاتقويان على السير، أعطاني صاحب البيت واسمه عودة بعض الشاش والزيت والملح غيرت على رجلي وربطتها ثم تركت المزرعة.

وصلت إلى عمان مابين صلاة المغرب والعشاء ولم أجد أحداً في الشوارع فالعاصفة جعلتهم يلتزمون بيوتهم، طرقت بيت أحد العقيلات من جماعتنا (أهل العيون) الصقعبي والصعب، غيرت ثيابي وسألت عن الوالد قالوا إنه في بيت حمد السعيد، كنا بعد العشاء الآخر طرقت بيت السعيد طرقاً شديداً ولم يرد علي أحد أحس أهل البيت بشدة الطرق فتحوا لي الباب وأشاروا علي أن أدخل إلى الديوانية (المجلس) وجدت بابه مقفولاً طرقته طرقاً شديداً ولم يفتح استغرب أهل البيت وأكدوا أنهم موجودون داخل الديوانية فتحت الباب (لقيت) وجدت الوالد وحمد السعيد وعبد الله السعيد على الدخيل جالسين في أماكنهم أسلم عليهم ولم يردوا السلام حاولت إيقاظهم، صرخت لأهل البيت (وشبهم) ماذا بهم لايردون، وجدت

النار مشتعلة فتحت الأبواب والشبابيك عرفت أنهم (مختنقون من الفحم) أفاق حمد السعيد وقال لي خل أهل البيت (يضربون) تليفون للدكتور (ملحس) بسرعة ماندري وش الذي جرى لنا حضر الدكتور على عجل، وبدأ يحاول إيقاظهم بمادة أخرجها من شنطته، عرفت أنهم (أختنقوا) من الفحم.

أفاق الجميع وبدأوا يتحسسون أنفسهم، ماذا جرى لهم؟ قال لهم الدكتور الحمد الله على السلامة وكيف تشعلون الفحم وتقفلون الأبواب إن في هذا خطر كبير.

كان أبو يوسف يقص علينا هذه القصة بين مصدق ومكذب وتذكرت كيف كان أبو يوسف مصراً على سفره، صارع الموت والحياة ومياه الشريعة وعواصف الثلج التي قال عنها الناس إنها لم تأت على هذه البلاد منذ ثلاثين عاماً، ضحى بحياته من أجل إنقاذ مجموعة أخرى لم يتفقوا على وعد، فتذكرت قوله تعالى: «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد» فسبحان وهاب الحياة.

تغيرت أحوال الجو وأصلحت الطرق، حضر إلينا العقيلات من عمان وقصوا علينا ماحدث لهم في عمان والعواصف الثلجية التي أقعدتهم في البيت لأكثر من أسبوع وماحدث للوالد وأصحابه.

انتقلنا من منزلنا في الضفة الغربية لنهر الأردن وأقنا في موقع آخر من جسر داميا ـ والفارعة كانت المراعي في هذه المنطقة طيبة.

وبانتهاء فصل الشتاء والربيع جاء الصيف ببوادره الطيبة، فتجهزت الأجلاب إلى أسواق فلسطين مروراً في نابلس ـ طولكرم ـ اللد. أما بقية الإبل فقد اتخذنا بها مساراً إلى البيرة ـ اللد، وبعد الانتهاء من الأسواق انتظم اجلاب الإبل في سوق اللد وصرفنا الكثير منها، وتفرق العقيلات

مـابين مشرق عاد إلى الوطن ومغرب يحاول تصريف إبله، وتوجهنا بما تبقى معنا من الإبل إلى أسواق فلسطين الجنوبية، الفالوجا ـ غزة ـ خان يونس ـ بئر السبع، وتركنا اللد في ١٦ جماد الثاني ١٣٦٥هـ متوجهين إلى غزة.

كانت هناك مناوشات بين العرب في فلسطين واليهود، وأذكر أن الوالد ـ رحمه الله ـ كان يقص على زملائه في بيت عبد العزيز الزنيدي أنه بينما هو عائد من سوق طولكرم توقف في مدينة يافا لأخذ مواصلة أخرى إلى غزة وهو في طريقه إلى موقف السيارات بين يافا وتل أبيب إذا هو يسمع انفجارات في سوق يافا أكد ذلك ركاب الاتوبيس الذين استقلوه معه بأن اليهود هم الذين وضعوا المتفجرات في سينما الحمراء وسوق يافا.

وقد تناقل الناس في هذا الشهر أخبار تفجير فندق الملك داوود بالقدس من قبل العصابات الصهيونية وذهب ضحيته أكثر من مائتي فرد من العرب واليهود والبريطانيين.

وأذكر في إحدى الليالي من شهر رمضان أن طرق باب بيتنا محمد العبد العزيز الرميحي في منتصف الليل ليخبرنا أنه حدث تفتيش في البيوت المجاورة لبيته ويسكنها فاروق بسيسو من أهل غزة ولما لم يجدوا مايبحثون عنه عادوا مصطحبين صاحب البيت إلى قسم البوليس، وفي الصباح تحقق لنا أنهم يبحثون عن الأسلحة.

انتهى شهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة سنة ١٣٦٥هـ وقد حضر إلى غزة عبد العزيز الراشد الحميد ومعه بعض الإبل فبقى ضيفاً علينا لمدة أسبوع، وبعد أن صرف إبله سافر إلى عمان بانتظار وصول أخيه سلمان من العراق، وفي نهاية الحجة ١٣٦٥هـ كان الوالد قد صرف مالديه من الإبل وقد ربحت تجارته (العشر اثنى عشر) على حد قوله للمرحوم عبد الله الشبعان.

بقيت في غزة بينما سافر الوالد إلى عمان يوم الخميس ٤ محرم ١٣٦٦هـ واشترى رعيتين من منصور الجربوع كان قادماً بها من أسواق العراق واشترى بعض الإبل من أسواق عمان وجهزنا بالخويا والرعيان ومايلزم لاقامتنا في الغور مرة أخرى لقضاء فصل الشتاء في المراعي ونزلت الإبل إلى الغور وحدد موقع الإقامة أمام قرية النصيرات حول الشريعة التي يمكن منها العبور إلى الضفة الغربية لنهر الأردن.

عاد الوالد من عمان يوم الخميس ١٨ محرم ١٣٦٦هـ بعد أن اطمأن على سفر الإبل وأثناء وجودنا في سوق غزة يوم الجمعة حضر سليمان الفوزان العثمان، قادماً من مصر بالقطار، واشترى بعض الإبل من أسواق غزة جهزها للنزول إلى الغور، ثم قدم إلى غزة على الفايز وقد ذكر أن له رعية من الإبل انضمت إلى إبلنا ونزلوا إلى الغور.

وقد تقرر أن يكون نزولي إلى الغور للانضمام إلى الخويا يوم الاثنين ٢٢ محرم ١٣٦٦هـ ويرافقني فهد المنيف من المعدية المقيمين في غزة ويسوق الإبل في أسواق فلسطين وهو من العقيلات الذين يعرفون الطرق إلى أسواق فلسطين ومصر وبقي الوالد في غزة ومنها يسافر إلى عمان.

سافرنا يوم السبت باحدى السيارات المتجهة إلى يافا التي وصلناها بعد صلاة العصر وفي أحد الفنادق أقمنا ليلتنا وكان مرافقي خبيراً بالبلاد. أخذنا جولة وتعرفنا على معالم المدينة فيما تبقى من النهار ثم دخلنا إحدى دور السينما وكانت تعرض فيلماً للفنانة أسمهان ـــ أخت فريد الأطرش ـــ وهو فيلم «غرام وانتقام».

لقد أعجبتني مدينة يافا في ذلك الوقت أبديت لفهد رغبتي في البقاء يوماً آخر فلقي هذا الطلب هوى في نفسه.

تجولنا في المدينة وزرنا ميناء يافا كان مزدحماً بالبواخر ثم دخلنا أحد

المطاعم وتناولنا طعام الغداء وتمشينا في شوارع يافا ثم دخلنا إلى شوارع أخرى قال لي إن هذه تل أبيب كانت مليئة بالمتاجر والمعروضات من البضائع والملابس، وقد أعجبتني فانيلة من الصوف اشتريتها، بخمس ليرات، وكان مامعي من النقود لايتجاوز العشر ليرات لكن الحياة في ذلك الوقت كانت رخيصة، فالاقامة في الفندق لا تكلف سوى خمسين قرشاً والأكل لايكلف في المطعم أكثر من عشرين قرشاً.

وفي المساء أبدى فهد رغبته لي بأن نسهر بأحد الملاهي، ولم أكن أعرف ماهو الملهى الليلي، ووافقت على ذلك، فذهبنا إلى ملهى لاأذكر اسمه، دخلنا إليه وهو مكان يشبه المقهى به موائد وكراسي ومسرح يشبه شاشة السينما، جلس فيه أفراد الفرقة الموسيقية يعزفون لحناً، ثم دخل أحد المطربين واسمه محمد عواد وأظنه من أهل فلسطين ثم تلته مطربة، بدأت تغني أغنية لأم كلثوم «على بلد المحبوب وديني» ثم طلب منها الحاضرون أغنية أخرى، وأخذت ترددها ولاأحفظ منها سوى (حيران ليه) لأن جارنا في المائدة كان يردد معها (ليه ــ ليه).

وكانت ليلة لاأنساها، ثم عدنا إلى الفندق في منتصف الليل وفي الصباح الباكر ركبنا اتوبيس أمام مكتب لتأجير السيارات إلى القدس الشريف، وأمام باب العمود توقف هذا الاتوبيس ونزلنا إلى مكتب آخر ركبنا سيارة (تاكسي) مع ثلاثة أشخاص قاصدين شونة بني عدوان على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

وصلنا الشونة قبل غروب الشمس، وقد حاولنا أن نجد سيارة نؤجرها لتوصيلنا إلى خيامنا في النصيرات لكن عبثاً حاولنا، فأقمنا ليلتنا في الشونة في مكان يسميه صاحبه فندقاً، فاخترنا إحدى الغرف للمبيت بها.

وفي الصباح وجدنا شخصاً ينادي أمام الفندق (أحد رايح النصيرات)

أبدينا رغبتنا وركبنا إحدى سيارات التاكسي وكانت الأجرة خمسة وعشرين قرشاً.

وصلنا إلى المخيم بعد عناء، فقد وجدناهم قد نصبوا الخيام في أحد التلال المنخفضة قرب الشريعة والسيارة التي أقلتنا لا تستطيع الوصول إلى المخيم، أنزلنا السائق في مرتفع يبعد ثلاثة كيلو مترات، اضطررنا إلى مشيها على الأقدام.

وجدنا في شراعنا: صالح العقل ـ محمد السويل ـ وشراع سليمان الفوزان وفيه عبد العزيز الفوزان وشراع عبد الرحمن الزايدي وشراع علي الفايز، وحضر إلى شراعنا عبد الرحمن الزايدي وكان هو الموجود من التجار ومعه إبراهيم الزمامي وعبد العزيز الزمامي، ودعانا لتناول القهوة في شراعه. وبعد أسبوع حضر إلينا الوالد ومعه علي الفايز وسليمان الفوزان وعبد الله الحمد الدبيخي الذي حضر من العراق ومعه رعيته لابن عمه عبد الله العثمان الدبيخي، وأحضروا بعض الأطعمة من عمان.

كانت أرض الغور هذه السنة قليلة الأمطار والمراعي قليلة مما اضطرننا إلى العبور إلى الضفة الغربية على غير الوقت الذي كنا نقضيه في الضفة الشرقية.

عبرت الإبل من الشريعة وعبر معها الخويا والمعدية وبقيت أنا والوالد وعبد الله الدبيخي.

كان هذا اليوم بارداً والوقت قبيل الفجر فاضطررنا للبقاء على ماتبقى من النار نتدفأ عليها وقبل شروق الشمس تركنا المكان سيراً على الأقدام إلى شونة بني عدوان وعلى الطريق المؤدي إليها توقفنا بانتظار إحدى السيارات لنقلنا، لكن طال الانتظار الرياح كانت شديدة والبرد قارساً، وكم توقفت وهم يسيرون أحاول تحريك قدمي فكان الوالد ينصحني بأن أحاول الجري أكثر حتي تتحرك الدماء في قدمي.

وكـان يـوماً رهيباً لاأنساه في حياتي، ولم أصدق أننا وصلنا إلى الشونة إلا بـعـد أن دخـلـت الـفـنـدق وأحضر الـرجـل لنا بعض الحطب وأوقد ناراً وتـشـربـنـا الـشـاي والـقـهـوة واسـتـقلينا إحدى السيارات المتجهة إلى أريحا ووصلنا إلى الفندق مابين صلاة المغرب والعشاء أقنا ليلتنا.

وفي الـصباح الباكر دخلنا إلى سوق أريحا واشترينا مانحتاجه من المواد الـغذائية حملناها على إحدى السيارات الكبيرة إلى حيث مخيمنا أما شريعة (النصيرات).

ولم نجـد المـراعـي بـأحـسـن مما هي عليه في الضفة الشرقية، وبعد أيام ارتحـلـنـا إلـى المـرتفعات القريبة مابين جسر داميا ــ ووادي الفارعة حيث مجرى (العين) عين الفارعة.

كان يزورنا في المخيم (العقيد هاشم بسيسو) وهو ابن الشيخ عمر بسيسو قـاضـي غـزة ويـعـمـل رئيساً لقسم الفارعة يقوم بالدوريات على ظهورالخيل وكان رجلاً شهماً طالما لجأنا إليه.

وأذكر أنه كان يحدث الوالد عما يحدث في فلسطين بين العرب واليهود، وأنـه قـد بـلـغ مـن اسـتهـتار اليهود إلى الحد الذي قبضوا فيه على رهائن من الضباط الانجليز وجلدوهم في مكان عام في تل أبيب.

في شهر ربيع الأول ١٣٦٦هـ تركنا الدبيخي والبازعي والفايز متوجهين إلى الأسواق لتصريف إبلهم، فإن الأحداث في فلسطين قضت على حرية الـتـنـقـل والـتـجـمـع في ومابين الأسواق ولم يبق إلا شراعنا وشراع سليمان الفوزان.

وبـدأنا ننتقل من مكان إلى مكان بحثاً وراء الكلأ ومن الفارعة سلكنا طـريـقـاً آخر يؤدي إلى جنين وقبل أن نصلها نزلنا أمام قرية (عربة) وهي تقع على مرتفع من الجبل.

وأذكر أنه في ٩ ربيع الثاني ١٣٦٦ هـ الموافق ١٠ مارس ١٩٤٧م كنا نقيم بالقرب من قرية عربة وهي في مرتفع جبلي وكان الرعيان يذهبون للرعي في السهول القريبة فيما بين عربة وجنين وفي المساء عادت الإبل بدون الرعيان إلى (مناخها) الذي تعودت عليه ولم يكن معها أحد من الرعيان وقت باحصائها فوجدت أن جملين أعرفهما لم يعودا مع الإبل فقلت في نفسي لابد أن الرعيان قد ركبوهما.

وبعد مرور ساعتين وصل أحد الرعيان في حالة يرثى لها فسألناه عن سبب ورود الإبل بدونهم، قال كنا نرعى الإبل في الوادي مابينكم وبين جنين وفي أحد المنحنيات تركنا الإبل في (تلعة) (جبال كونت دائرة وليس لها إلا مطلع واحد) تنزل منها مياه الأمطار إلى حيثالوادي الكبير، وبينما نحن جلوس خرج علينا ثلاثة من اللصوص معهم بنادق هددونا بالسلاح (وكتفونا) وكمموا أفواهنا وسرقوا جملين. أحدهما كان الوالد يعتز به فقد اشتراه الوالد من عمان وهو ضعيف وبدأ يعتني به شخصياً حتى استرد عافيته وتعلق بالوالد فبمجرد أن يستدعيه باسمه يحضر إليه كان يسميه (دهمان)، واقتاد اللصوص الجملين وتركونا في مكاننا ولم نستطع تخليص أنفسنا من الحبال حتى تجمع بعضنا حول بعض واستطعنا بعد جهد فك الحبال وقد حضرت إليكم أما زملائي فهم خجلون من الحضور.

بعثنا إلى أصحابه وحضروا إلينا وفي الصباح، ركبت مع أحد الرعيان إلى مركز الشرطة في جنين وأبلغت عن الحادث.

حضر الوالد وسليمان الفوزان من غزة وأخبرناهم بالحادث فسألني الوالد عن العرب الذين يسكنون إلى جوارنا في المرتفعات وابلغته أنهم من عرب (الأحيوات) من سكان بئر السبع وفي صباح اليوم التالي كان الوالد في بيت كبيرهم ويدعى (سالم عليوى) ما ان رأي الوالد حتى سلم عليه فهو يعرفه في أسواق بئر السبع، فأبلغه بالحادث فما كان منه إلا أن أسر إلى

أحد رجاله وبدأ يكلمه بكلام حتى إذا فرغ التفت إلى الوالد قائلاً لايكون لك فكر بكره تكون الجمال عندكم وفعلاً لم يمض سواد الليل حتى كانت الجمال مع إبلنا بدون أن يحس أحد بدخولها إلى (المراح) وانتقلنا بعد ذلك إلى عرابة وهي قرية أخرى تقع على الطريق المؤدي من يافا إلى حيفا ثم إلى سهل مرج عيون، جهزت أجلاب إلى سوق كفر ياسيف وكانت الأسواق كاسدة مما اضطررنا إلى العودة إلى أسواق طولكرم ولم نوفق في البيع ثم سافرنا إلى اللد وفي السوف وجدنا إبلاً أرسلها عبد العزيز الراشد مع صالح البراهيم الراشد وكتب رسالة للوالد إذا لم توفق في سوق اللد فالرجاء تأخذونها معكم إلى مصر، وهكذا تركنا سوق اللد متوجهين إلى غزة في شهر رجب سنة ١٣٦٦هـ.

وأعود لأذكر القارىء الكريم كيف حددت أول مارس ١٩٤٧م للواقعة التي ذكرتها وأقول أنه عند دخولي قسم البوليس في جنين كان الجنود في استعدادات وتفتيش والقائد الانجليزي المسئول عن القسم كان في شغا شاغل عن شكواى.

فقد علمت من أحد العساكر الفلسطينيين أن اليهود في هذا اليوم قد اعتدوا بالقنابل والمتفجرات على نادي الضباط الانجليز في مدينة القدس مما أدى إلى مقتل العديد منهم.

قص علي الوالد رحمه الله قصة بعد سنوات كثيرة مرت على رحلتنا هذه التي هي سنة الأجداب وسفرنا إلى شمالي فلسطين وراء الكلأ والمراعي يقول: «كنت مع سليمان الفوزان ــ ومعنا جلبان ــ متوجهين إلى أسواق كفر ياسين كنت لاأملك سوى جنية واحد في جيبي وكنت أخفي هذا الجنية عن زميلي سليمان عرضت الإبل في السوق ولم نوفق إلى بيعها وانتهى السوق، بادرني سليمان معك فلوس قلت له ليس معي شيء، كانت الدنيا قد ضاقت بنا، كيف نعود إليكم وأنتم محتاجون إلى الأرزاق والمؤن

وعلمت أن سليمان لايحمل معه نقوداً، فأخرجت الجنية وصرفته، دفعت أجرة لي وله عشرة قروش، ركبنا الحافلة إلى قرية عرابة ونزلنا من الحافلة وجلسنا في إحدى المقاهي نفكر ماذا نحضر لكم، هل نتغذى، بهذه البقية من الجنية أم نحضر لكم معنا بعض الدقيق لمؤنتكم؟ وأنا في تفكيري لمحت شخصاً من أهل طولكرم اسمه عبد الفتاح كان قد استدان مني مبلغاً من المال قيمة جمال لم يردها عدوت إليه بينما تعجب سليمان هل حدث لي مس من الجنون، أمسكت بالرجل ورحنا في عناق أخوي، كنت لم أره منذ مدة ثلاثة أشهر أحضرته إلى حيث يجلس سليمان، سلم عليه وشكونا إليه أحوالنا فتح الرجل صرة كانت معه وأخرج منها عشرين جنيها ناولني إياها وأنا بين مصدق ومكذب ثم ودعنا وانصرف.

دخلت أنا وسليمان أحد المحلات واشترينا أربعة أكياس من الدقيق قسمناها فيما بيننا واشترينا عشرة كيلو لحم واستأجرنا إحدى السيارات وعدنا إليكم ومن الصباح الباكر لم نكن قد ذقنا الزاد وقد أنستنا فرحتكم بنا ماعانيناه من تعب وارهاق وجوع خاصة وأننا عدنا إليكم محملين بالمؤن.

كان الوالد يقص علي هذه القصة أمام أخواني وبعد مرور فترة طويلة، واستطرد يقول لقد كنا نضحي بأنفسنا في سبيل لقمة العيش الشريف وكنا نخفي عنكم ماتحملناه من تعب.

بعد أن فقدنا الأمل في أسواق فلسطين خاصة والأحداث كانت تتوالى فهنا انفجارات، وهناك اعتداءات وأضحت فلسطين غير آمنة.

فتجمع مابقي من العقيلات في غزة واستقر الرأي على أن يعود من صرف إبله إلى عمان ويسافروا بما تبقى من الإبل إلى مصر.

الرحلة إلى مصر

تكونت مجموعة من العقيلات للسفر إلى مصر ومعهم أربع من الرعايا وبعض الخيول وهم: الوالد ـ إبراهيم السليمان الجربوع ـ سليمان العبد الله الصبيحي ـ صالح البراهيم الراشد نيابة عن عمه عبد العزيز الراشد والمرافقين إبراهيم الغضية محمد الفريجي فهد المنيف ـ صالح العقل ـ عبد الله المطلق وبعض الرعايا وأنا.

خرجنا من غزة صباح يوم السبت ٢ شعبان ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، وكان دليلنا في هذه الرحلة عبد الله الغفيص، يعاونه صالح العقل لخبرتها في هذه الدروب، ووصلنا قبل الظهر إلى دير البلح (ضحينا) بإحدى الحواكير وجهزنا طعام الغداء والقهوة والشاي، فسارت القافلة بعد ذلك باتجاه خان يونس، التي وصلناها بعد المغرب، واشترينا من أحد الحوانيت بعض لوازم الرحلة ثم واصلنا المسير باتجاه رفح، وهي نهاية الحدود الفلسطينية، وفيها رفح المصرية وهي محطة كبيرة للقطار القادم إلى فلسطين من مصر.

ورفح يقول عنها ياقوت: «منزل في طريق مصر بينه وبين عسقلان يومان، وأول الرمل كان مدينة عامرة وبها سوق كبير».

وفي منتصف الليل نزلنا في رفح الفلسطينية وهي قرية كبيرة وكثيرة أشجار الفاكهة وبها مزارع كثيرة، وقد ذهب أحد الخويا إلى أحد المحلات واشترى (علفاً) للإبل وبعض اللوازم للقافلة. وفي الصباح تحركنا إلى رفح المصرية، وهي قرية كبيرة وبها محطة كبيرة للقطار، وفيها أسواق ومزارع وهي أكبر من رفح الفلسطينية وتفصلها أسلاك شائكة وعلامات تدل على الحدود مابين مصر وفلسطين.

تركنا رفح وبدانا نسير بالنفود أو صحراء سيناء باتجاه الشيخ زويد، وهي أيضاً قرية كبيرة وقريبة من البحر الأبيض المتوسط وبها مزارع كثيرة وبيوت وبعض الحوانيت يشترى منها المسافر، سارت القافلة باتجاه قطيا، وهي المورد الثاني بعد غزة.

قطيا: قال عنها ياقوت: «قطية» قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما بيوتهم صرائف من جريد النخل.

وقال عنها الرحال ابن بطوطة[1]: قطيا مشهورة، وبها تؤخذ الزكاة من التجار ونفيس أمتعتهم وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولايجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظة فاذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لايبقى أثر ثم يأتي الأمير في الصباح، فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثر طالب الأعراب بإحضار الجباية. وكان بها في عهد وصولي إليها، عز الدين أستاذ الدار قاري من خيار الأمراء.

أما عند وصولنا إلى قطيا، فلم نجد إلا بعض البيوت العامرة، وخراب وأطلال تدل على ماضي هذه البلدة، وجدنا بئراً للمياه، يسقي منها الأعراب بواسطة (طلمبة) كهربائية وفيها محطة صغيرة للقطار يتوقف فيها وقت الحاجة إلى ذلك.

ثم سقينا الإبل بواسطة أحواض شيدت من الطين والجبس، ودفع على كل رأس قرشان، ومياهها عذبة، ثم واصلنا المسير إلى حيث العريش، وقد رافقنا أحد الأعراب على جمل يقصد قرية اسمها المساعيد قبل العريش في أحد الكثبان الرملية حطت القافلة للاستراحة بعد عناء السقيا، والمسير.

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار جـ ١ ص ٧٠.

وكان قد مضى على سفرنا من غزة يومان وهذه الليلة.

في الصباح الباكر تحركت القافلة وبدأنا نشاهد على البعد قرية صغيرة بها الكثير من أشجار النخيل وبها بعض البيوت، فاستأذن مرافقنا إلى حيث مقصده قرية المساعيد، وقرب الظهر كنا في العريش، وأقمنا شرقي وادي العريش وأرضه مبسوطة، فالمدينة كبيرة وفيها مبان حديثة، وقد اخترنا أحد البيوت المنعزلة شرقي الوادي، وأقمنا فيها لدى أحد العقيلات واسمه عبد العزيز ابن جميعة وهو مقيم في العريش منذ مدة طويلة، وهو وكيل للحكومة السعودية، يعطي أوراقاً تحمل أسماء العقيلات وتبعيتهم للمملكة، وكانت الأوراق التي تصدر منه بعنوان: الوكالة السعودية بالقاهرة باسم ملك الحجاز وسلطان نجد إلى من يهمه الأمر والاسم والمهنة.. الخ وحصلنا على هذه الأوراق وتحركنا إلى القنطرة الشرقية، وهي أول مدخل إلى أسواق مصر من سيناء.

الجفار: (أو سيناء) أرض يقول عنها ياقوت في المعجم[1] أرض من مسيرة سبعة أيام من فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وكلها رمال سائلة بيضاء غربيها منعطف نحو الشمال ببحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) وفي شرقيها منعطف نحو الجنوب إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) وسميت الجفارة لكفرة الكفار بأرضها.

ويزعمون أنها كانت كورة جليلة في أيام الفراعنة إلى المائة الرابعة من الهجرة، فيها قرى ومزارع. أما الآن ففيها نخل كثير وهو ملك لقوم متفرقين من أهل مصر، يأتون أيام لقاحه فيلقحونه وأيام إدراكه فيجتنونه وينزلون بينه مع أهلهم في بيوت من سعف النخيل.

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ١٤٥.

وهو في عصرنا الحاضر يعرف بالمصيف ينتقل الناس إلى مصايف سيناء يقضون فيها فصل الصيف.

وفي الجادة السابلة إلى مصر (الطريق المؤدي إلى مصر) عدة مواضع عامرة، يسكنها قوم للمعيشة على القوافل وهي: رفح ــ القس ــ الزعقا ــ العريش ــ الواردة ــ قطيا، وفي كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين يشتري منها المسافر كل مايحتاج إليه.

وقد تبدلت هذه المواضع إلى قرى كثيرة البناء واستعاضوا عن إقامة البيوت من سعف النخيل إلى بيوت مبنية باللبن والجبس والحجارة التي جلبوها من الجبال الواقعة، شرقي العريش وإن احتفظت بالحوانيت والأحواش الخاصة بإقامة القوافل.

ثم تطورت هذه القرى خلال القرن التاسع عشر عندما تم مد الخط الحديدي من فلسطين إلى مصر، وأصبح فيها محطات للقطارات خاصة في رفح التي أقيمت فيها مدينتان: رفح الفلسطينية ورفح المصرية والعريش التي أصبحت هي عاصمة شمال سيناء ثم أقيمت مدينة القنطرة شرقاً على ضفة قناة السويس، والتي أصبحت مدخل سيناء ونقطلا العبور إلى ضفة القناة الغربية حتى مدينة القنطرة غرباً.

ويقع جبل الطور في سيناء، فيقال طور سيناء وهو الجبل الذي كلّم الله تعالى رسوله موسى بن عمران عليه السلام، ونودى فيه، وهو كثير الشجر، وفيه دير في أعلى الجبل وداخله عين ماء وخارجه عين أخرى ويسمى الآن دير سانت كاترين في جنوب سيناء وفيه مسجد أقيم بعد الفتوحات الإسلامية، وقد تعمر هذا الدير وأصبح مزاراً يقصده السواح من جميع أنحاء العالم.

أما مدينة العريش [1] **:** فهي أول مدن مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) كثيرة الطيور والجوارح والمأكول والتمور والثياب التي ذكرها رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تعرف بالقسية وبها الرمان العريشي، وقيل سمى العريش لأن إخوة يوسف عليه السلام كلما أقحط الشام ساروا إلى مصر، وكان ليوسف حراس على أطراف البلاد فسكنوا بالعريش وكتب صاحب الحرس إلى يوسف بقوله له أن أولاد يعقوب الكنعاني قد وردوا البلد للقحط الذي أصابهم فإلى أن يأذن لهم عملوا عريشاً يستظلون به عن الشمس فسمى الموضع العريش.

فكتب يوسف إلى عامله يأذن لهم في الدخول إلى مصر، والقرآن الكريم قص علينا قصة يوسف وإخوته.

ومدينة العريش كانت مرسى فرعون مصر وهي آخر مدينة تصل بالشام، وفيها جامعان ومنبران وهواؤها صحيح طيب، وماؤها حلو عذب وبها سوق جامع كبير وفنادق ووكلاء للتجار ونخل كثير.

غادرنا العريش مساء يوم الثلاثاء ٥ شعبان ١٣٦٦هـ في طريقنا إلى القنطرة الشرقية، وكان التجار بعد انتهاء الاجراءات الرسمية قد ركبوا القطار إلى القنطرة الشرقية وعلى مسيرة ساعتين من العريش توقفنا حول أحد الكثبان الرملية حتى تجمعت الإبل وسرنا باتجاه بئر العبد، التي وصلناها في الصباح.

وأذكر أننا توقفنا مابين بئر العبد والدويدار حول كثبان الرمال وكان الجو حاراً توقفت أمام نخلة قصيرة طلعت على فروعها فوجدت فيها رطب أخذت منها القليل وأكلته ثم عدت إلى راحلتي وعلى ظهرها أخذني

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ١١٣ ـــ ١١٤.

النعاس ولم أصحُ إلا على صوت فهد المنيف يناولني عصا كانت بيدي وعندما استغرقت في النوم وقعت مني والتقطها فهد وأعطاني إياها، وقد أنبت نفسي كيف أنام على ظهر الراحلة.

ثم وصلنا إلى الدو يدار وهي محطة للقطار وحولها بعض البيوت المشيدة بالحجارة والطين والمبنية من صرائف النخيل، وحولها بعض بيوت الأعراب. وفي المساء وصلنا إلى القنطرة الشرقية.

القنطرة الشرقية

مدينة كبيرة تقع شرقيّ قناة السويس، وفيها محطة للقطار القادم من مصر إلى فلسطين، وفيها إدارات حكومية للصحة والداخلية والجمارك وفيها معدية لنقل الناس والبضائع من الشرق إلى الغرب وبالعكس تعمل ابتداء من الساعة الثانية عشر ظهراً عندما تكون قناة السويس خالية من السفن المارة.

أدخلت الإبل إلى مبنى كبير فيه أحواش للإبل والمواشي وتسمى (الكورانتينه) أو الحجر الصحي تبقى المواشي في هذا المبنى ثلاثة أيام يكون التجار قد اتفقوا على تعديتها إلى الضفة الغربية وانهاء الاجراءات الرسمية التي يقوم بها وكلاء العقيلات وهم في ذلك الوقت: سليمان الرميح وأولاده من أهل بريدة، وحمد المسلم، يدفعون رسوماً على الإبل ورسوم التعدية بواقع خمسين قرشاً وعشرة قروش للمعدية للرأس والراكب.

والمعدية عبارة عن باخرة تصل حمولتها إلى ألفي طن تحمل حوالي مائة رأس من الجمال وبها مكان للركاب والسيارات وتسير بمحركات تنتقل من الشاطىء الشرقي إلى الغربي وبالعكس.

تحدد لعبور الإبل صباح يوم السبت ٩ شعبان ١٣٦٦هـ الساعة الثانية عشرة يدخل عشرون جملاً من إبلنا وعشرون من إبل الراشد وعشرون من إبل الصبيحي وعشرون من إبل إبراهيم الجربوع، فخرجت الإبل على دفعات مارة بمبنى الجمارك ومنه إلى شارع محاط بأسلاك من الجانبين تساق الإبل حتى تركب المعدية وتقفل الأبواب وفي خلال عشر دقائق تكون

الإبل قد خرجت إلى الشط الغربي ومعها الرعيان بدأ العبور من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة السابعة مساء وفي القنطرة الغربية توقفت الإبل حتى اكتملت وحضر التجار والخويا.

وفي إحدى المزارع أدخلت الإبل تأكل من الأعلاف المزروعة مقابل مبلغ من المال بينما الخويا يجهزون طعام العشاء وبعد أن أكلنا وشربنا القهوة والشاي وودعنا التجار ليستقلوا القطار إلى الزقازيق.

في منتصف الليل سرنا باتجاه الإسماعيلية على الطريق الزراعي حيث تكون قد خفت فيه حركة سير السيارات حتى إذا قطعنا مسافة نصف الطريق تركنا خط السيارات ودخلنا في الصحراء ثم أقمنا ليلتنا وفي الصباح تحركنا كانت الشمس حارة وسموم الصحراء تلهب الوجوه وصلنا إلى قرية الصالحية وهي عبارة عن غابة من النخيل، توقفنا حول القرية وذهبنا نسأل عن أحد العقيلات الذي كان قد أقام فيها وتزوج من أهلها وله ولد يدعى رشيد الصالح، وقد زرته في بيته مع فهد المنيف وأكرمنا الرجل ثم واصلنا المسير إلى حيث أبو حماد وهي أيضاً قرية صغيرة أقمنا فيها ليلتنا وفي الصباح غادرناها إلى التل الكبير قرية كبيرة وفيها معسكرات للجنود الانجليز وفي المساء كنا قرب الزقازيق.

والزقازيق مدينة كبيرة، هي عاصمة محافظة الشرقية، وفيها سوق كبير للمواشي، وسوقها يمتد يومي الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع، فأدخلنا الإبل في أحد الأحواش واستقبلنا التجار ومعهم بعض وكلاء التجار القادمين من الأسواق المصرية من امبابة وبلبيس.

وفي صباح يوم الثلاثاء ١٢ شعبان ١٣٦٦هـ أدخلت الإبل إلى السوق، حيث باع الوالد يومها جميع الإبل الخاصة بنا، وجلس صالح الراشد ليبيع إبلهم ولم يتصرف منها سوى عشرة جمال كنت أجلس في إحدى المقاهي

في السوق عندما بادرني رجل يرتدي الملابس المصرية، وسألني بلهجة مصرية (أنت من العكيرشة أو من خب القبر) ولم أنتبه أو أفهم ماقاله، لكن أحد الجالسين صغير السن وإن كان هو الآخر يرتدي الزي المصري، قال لي رد على الشيخ فايز،عرفت انه فايز إبراهيم الحميد من أهل بريدة وأنه بهذا الكلام يداعبني، وهو يعرف أن جدي هو صاحب خب العكيرشة شرقي مدينة بريدة أما الجالس إلى جواري فقد عرفني بنفسه فهو عبد العزيز المحمد الرشيد العمرو وهو أيضاً من الجماعة لكنه من مواليد بلبيس وأخوه سليمان هو الجالس إلى جوار صالح الراشد كسمسار.

انتهت مدة السوق يوم الاثنين وخرجنا إلى الحوش الذي أجرناه في ليلتنا السابقة وحضر مجموعة من وكلاء التجار إبراهيم مرسي وهو وكيل عبد العزيز الحجيلان وبدأ يتفاوض مع الوالد على شراء إبل الراشد وتدخل أحمد السليمان البراك وهو من أهل بريدة ومولود في بلبيس ورفع السعر، وهنا بدأت المنافسة ووصل سعر الرأس إلى سبعة وعشرين جنيها، ووافق الوالد على هذا السعر لحساب عبد العزيز الحجيلان وأن يتم صرف القيمة في سوق بلبيس، دفع المشتري عربوناً مائتي جنية صرف منها الوالد إيجار الرعيان والمعدية وودعناهم، وذهبنا إلى محطة القطار، كنا الوالد وأنا وصالح الراشد ومحمد الفريجي سافرنا إلى بلبيس.

الفصل الخامس

بلبيس

تعتبر نقطة لقاء للعقيلات مع وكلائهم وفي سوقها يومي الخميس والجمعة تجتمع الإبل القادمة من الجزيرة العربية وفلسطين والأردن والإبل القادمة من السودان، وأثناء وجودنا في بلبيس كان لايزال الكثير من أبناء العقيلات يقيمون في القاهرة وبلبيس مثل: الحليسي ـ أبو بطين ـ سليمان البراك ـ محمد العمرو ـ فايز الحميد ـ إبراهيم الحميد وأولادهم يمارسون تجارة الإبل والخيول ووكلاء لتجار الكويت ـ بغداد ـ عمان يودعون التجار نقودهم في مصر ويتسلمونها في المكان الذي يحدده التاجر.

وبلبيس مدينة كبيرة لها ـ بفضل موقعها[1] ـ أهمية كبيرة في العصور الوسطى، واسمها مشتق من القبطية (قلبيس) تقوم بلبيس على طريق الغزو الطبيعي لمصر، ولذلك كان مصير هذا البلد أن تلقى حصار الجيوش القادمة لغزو مصر، فكان أول ماحدث سنة ١٩هـ/٦٤٠م على يد العرب الذين توقفوا فيها شهرا وكانت بلبيس أول محطة في طريق الجنود المغادرة إلى الشام ويسميها الدمشقي باب الشام.

وجرت العادة أن تكون هذه المدينة على طريق حملة البريد وقاعدة الحمام الزاجل، وكانت إلى عهد قريب حاضرة الشرقية، ولكن الزقازيق حلت محلها في القرن التاسع عشر.

وفي سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م أنزل المدير المالي لمصر قبيلة قيس في إقليم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٥٤٥.

بـلـبـيـس وكـان أفراد القبيلة ٣٠٠٠ شخص، وقد ساعد وجودهم على نقل التجارة حيث شكلوا كتيبة لهذا الغرض.

وإذا كان هذا حال بلبيس في العهود القديمة، فإنها ظلت الباب الوحيد المؤدي من مصر إلى الشام، حتى تم حفر قناة السويس، أصبحت القنطرة الغربية والشرقية البابين الرئيسيين الى بلاد الشام، ومهما كن من أمر فإن بلبيس احتفظت بطابعها العربي الفريد حيث يلتقي عرب الصحراء من سيناء والجزيرة العربية في هذه المدينة واختطلوا بالأنساب.

وفي بلبيس وجدنا بعض التجار: محمد العبد الرحمن الرواف ــ عبد العزيز الحماد يسكنان في حوش صالح الحليس في شرقي مدينة بلبيس، وصلت الإبل وأدخلت إلى الحوش، وهي قادمة من أسواق بلبيس و يسكن العقيلات في هذا الحوش الكبير حيث يضم حوالي عشرة غرف ومجلس حمام وحوش كبير يتسع لحوالي خمسمائة رأس من الإبل.

كان الموجودين في هذا الحوش: الوالد ــ سليمان العبد الله الصبيحي ــ إبراهيم السليمان الجربوع ــ عبد العزيز الحماد ــ محمد الرواف ــ إبراهيم المسلم ــ صالح الراشد ــ محمد الفريحي وحوالي عشرة من الخويا، وكل تاجر يدفع مبلغاً من المال على كل فرد مسئول عنه ويجمع هذا المبلغ في صندوق يصرف منه على المعيشة طوال فترة الإقامة، وقد تولى مهمة هذا الصندوق سليمان الصبيحي.

أقمنا في بلبيس مابقى من شعبان ورمضان وشوال وذى القعدة ١٣٦٦هـ، وكانت الأجلاب ترسل إلى الأسواق حيث يذهب التجار معها يصرفون إبلهم، ثم يعودون إلى بلبيس، أما الأسواق فهي: شبين الكوم ــ الزقازيق ــ بلبيس.

بقيت أنا وصالح الراشد في الحوش نذهب إلى بيت سليمان البراك

ونـلـعـب مع أبنائه يونس وإسماعيل، وكنا نذهب إلى السينما أو الأفراح، ثم نعود إلى الحوش.

وفـي هـذه الـفـتـرة انـتشر وبـاء خـطير في القرى المصرية القريبة من بـلبيس وهو (مرض الكوليرا) الذي استشرى في هذه البلاد، وحضر مجموعة مـن الأطـبـاء إلـى جـمـيـع المـنـازل يطعمون الناس بالمصل المضاد لهذا المرض الخـطير، وقـد أمـرت الحـكـومـة المـصرية يومئذ بعدم السفر من وإلى بلبيس، وكـل يـلـزم مـنـطـقـتـه لفترة شهر أو أكثر، وأصبحنا محاصرين ــ ليس من الـغـزاة كما كـانـت بـلـبـيـس فـي الأزمنة الغابرة ــ وإنما هو اتقاء لشر هذا المرض الخطير.

كـان الجـو صـيـفـاً، وكـنـت أنـا وصالح الراشد فوق أسطح الغرف في حـوش الحـلـيـسـي نـطلع على سلم صغير يؤدي إلى السطح، وهو قريب من سطـح الـشارع، وبإمكاننا النزول من السطح إلى الشارع حيث نذهب إلى الـسينما لـيلاً، ثم نعود إلى حيث كنا دون أن يعرف أحد من الموجودين في البيت.

كـان الـتـجـار يـنـامـون فـي نحو الثامنة مساء، ونستأذن منهم إلى طلوع الـسطـح ومنه إلى الشارع، وكانت أيام طويلة قضيناها أنا وصديقي صالح نـذهـب إلـى المقهى حيث نتناول الشاي ثم إلى السينما. وأذكر أننا شاهدنا مـن الأفـلام مـايـزيـد عـلى المائة منها أفلام عبد الوهاب القديمة مثل الوردة الـبـيـضـاء، رصاصة في القلب، لست ملاكاً، وأفلام أم كلثوم مثل: سلامة ــ وداد، وقد شاهدنا فيلم سلامة أكثر من مرة.

بـقـيـنـا عـلى هذا الحال حتى بداية شهر ذى الحجة عندما صرح بالسفر مـن بـلـبـيـس إلى القنطرة ثم إلى فلسطين سافر صالح الراشد محمد الفريحي وبـعـض مـن خـويا سليمان الصبيحي، وفي يوم سمعت الوالد يقول للشيخ

إبراهيم الجربوع سوف نسافر إلى القاهرة وكل إنسان يسافر بوسيلته التي يستطيع بها الهروب من هذا الحصار، سمعت إبراهيم يقول للوالد اتفقت مع سيارة تنقل جريدة المصري أما الوالد فقد اتفق مع إحدى سيارات التاكسي إلى المطرية وكانت أجرة الفرد من بلبيس إلى القاهرة في ذلك الوقت بالقطار خمسة قروش وبالاتوبيس ستة قروش، أما النفر بالاكسي فهو بتسعة قروش. اتفق الوالد ــ كما قلت ــ مع أحد أصحاب التاكسي على أن ينقلنا إلى القاهرة بخمسة جنيهات واشترط علينا أن ننزل قبيل كوبري المعاهدة، حيث هناك نقطعة كبيرة للتفتيش، ثم نعبرا سيراً على الأقدام من أحد الجسور الصغيرة في وسط المزارع، ونلتقي به على الخط وهكذا كان، فقد ركبنا من إحدى المقاهي في بلبيس ذلك التاكسي، حتى إذا اقتربنا من الكوبري توقف السائق، ونزلنا وأشار إلينا أن نتجه إلى المزرعة المقابلة ومنها نجد (كوبري) صغيراً يعبر هر النيل من قنطرة صغيرة سيراً خلال المزرعة أكثر من ساعة، حتى عثرنا على هذا الكوبري الصغير، وعبرناه مع أحد المزارعين وأصبحنا بالقرب من خط الأسفلت المؤدي إلى المطرية توقفنا على الخط وإذا السائق يمر بنا و يتوقف، ركبنا معه حتى وصلنا إلى المطرية، شارع يسمى ترعة الجبل وأمام اسطبل الشيخ فوزان السابق، حيث يربي فيه خيول كثيرة، يدخل بها سباقات الخيل في مصر. توقف التاكسي ونزلنا.

ودعنا السائق شاكرين. أمام الاسطبل وهو مبنى كبير يضم غرفاً خصصت للخيول وغرفاً كبيرة لسكن الجوكية والمسئولين عن تربية الخيول وغرفاً واسعة للضيوف وكانت المفاجئة دخل الوالد وأنا خلفه إلى الأسطبل حتى سمعت صهيل أحد الجياد يرتفع ومن تعبي من ركوب السيارة والمسافة التي قطعناها سيراً على الأقدام لم أفيق إلا على صوت الوالد وهو يقول: الله وأعلم إن هذا حصانك (مرزوق) هل نسيته وهنا تذكرت ــ هذا هو يرحب بي ولكن بعد سنتين من فراقنا ــ حقا إن الخيول وفية

للإنسان ـــ اسرعت إلى حيث هو فا أن رآني حتى زاد صهيله وأستطيع أن أقول أننا تبادلنا العناق وهو وفاء نادر لازلت أذكره.

وفي المجلس الكبير وجدنا عبد العزيز الحماد وهو يرتبط بصلة نسب هو والشيخ فوزان السابق القنصل العام للمملكة العربية السعودية في مصر، وجدنا رجلاً كبيراً في السن يرتدي الملابس العربية، وعقال مطرز بالذهب، عرفه الوالد وإذا هو عبد الله العيسى والد الأخ إبراهيم العبد الله العيسى القنصل العام للمملكة العربية السعودية في عام ١٤٠٠هـ.وله خيول يربيها، وبعد قليل نودي لصلاة الظهر، وأم الحاضرين محمد العيسى والد سليمان العيسى مذيع التليفزيون المعروف، وبعد أن فرغنا من الصلاة كان قد تجمع حول الصلاة الكثير من العقيلات الموجودين في المطرية، فقد حضر الشيخ عبد العزيز السابق وابنه صالح وحضر عبدالله البراهيم أبا الخيل، وأخوه صالح، وإبراهيم السليمان الجربوع . وعلى مائدة الغداء حضر الشيخ فوزان السابق، وهو رجل مهيب الطلعة طويل القامة نحيف الجسم، يشبه إلى حد كبير جلالة المرحوم الملك فيصل بن عبدالعزيز. يرتدي الملابس العربية، وغترة وعقال مطرز بالذهب وعباءة بيضاء خفيفة، وبعد أن سلم على الحاضرين جلس يتناول طعام الغداء.

خرجت مع الوالد وإبراهيم الجربوع إلى (اسطبل) الشيخ عبد الله ابراهيم أبا الخيل وهو لايبعد سوى امتار قليلة في نفس الشارع، وتناولنا القهوة والشاي، وتعرفنا على المجموعة الموجودة من العقيلات ثم عدنا إلى اسطبل الشيخ فوزان السابق ووجدناه يتأهب للنزول إلى القاهرة.

(القــاهرة)

سمعت الشيخ فوزان يسأل الوالد وإبراهيم الجربوع إذا كانوا يرغبون البقاء أو النزول إلى القاهرة، فأبدوا رغبتهم في النزول حيث أن هذا اليوم هو وقفة عرفات ٩ الحجة ١٣٦٦هـ الموافق ٢٤ أكتوبر ١٩٤٧م وسوف يصلون العيد بالجامع الأزهر.

ركبنا مع الشيخ فوزان في سيارته، وجلست في المقدمة بين السائق وعبد العزيز الحماد، وفي الخلف جلس الشيخ فوزان والوالد وإبراهيم الجربوع، سلكنا الطريق المؤدي حول سور قصر القبة إلى حيث ميدان فسيح من حدائق جميلة أمام بوابة القصر، ودخلنا شارعاً كبيراً عرفت أن اسمه شارع مصر والسودان، ثم إلى شارع كبير حوله حدائق ومحاذ لقضبان السكة الحديد، عرفت أنه شارع الملكة نازلي، وعلى ماأعتقد أنه شارع (رمسيس) الآن إذا أقبلنا على مبدان فسيح التفت الشيخ إلى إبراهيم الجربوع قائلاً: (وين تنزلون) أين تنزلون؟ فأقبلنا على ميدان المحطة أي ميدان محطة مصر.

الميدان فسيح وبه حدائق، وفي الوسط (عسكري) يجلس على مبنى صغير مرتفع يصرف مرور السيارات الذي لم يكن مزدحماً في هذا الوقت من الليل، فتوقف السائق أمام إشارة من العسكري. وأراد الوالد النزول لكن الشيخ أشار إليه أن يبقى حتى يشير العسكري بالسير ونقف في مكان بعد الميدان.

وكانت الأنوار في هذا الميدان كأننا بالنهار، واللافتات تضيء وتطفىء

وهي عبارة عن إعلانات عن فنادق وأماكن توقف السائق بعد إشارة من الشيخ ونزلنا إلى شارع سماه لي الوالد (كلوت بك) حيث يزدحم هذا الشارع بالفنادق وسرنا حتى نهايته وقبل ميدان صغير يتصدره جامع توقفنا أمام فندق اسمه (لوكاندة محمد علي) دخلنا من البوابة واستقبلنا صاحبها أو المسئول عنها في ترحاب فهو صديق للعقيلات و ينزلون عنده.

اختار الوالد غرفة لنا مكونة من سريرين واختار إبراهيم الجربوع غرفة مجاورة، كنت لأول مرة أنام على سرير، ولذلك اختار لي الوالد السرير الموازي للحائط ورحت في نوم عميق لم أفق منه إلا على صوت الوالد وهو يربت على خدي وأنا ممدد على الأرض، لقد وقعت من السرير أثناء النوم، ولم ينفع حذره في اختيار سريري إلى جوار الحائط.

في الصباح الباكر دخل إلى الغرفة شخص يحمل صواني فيها من الجبن والزبد والمربى والشاي والقهوة العربية كان يرتدي مريول أبيض، تناولنا الإفطار وتوضأنا ثم تركنا الفندق إلى أين؟ لا أعرف. خرجنا من باب الفندق والمارة في هذا الشارع قليلون خاصة في الوقت الذي خرجنا منه، خرجنا إلى ميدان صغير عرفت أن اسمه (ميدان الخازندار)[1] ، الميدان يمر به خطوط حديدية قال لي الوالد هذا خط (الترومواي) أو الطرماي، كما كانوا ينطقونه، خرجنا من حواري ضيقة إلى ميدان فسيح فيه أشجار، قال إبراهيم الجربوع يوجه الكلام إلى: هذا ميدان العتبة الخضراء.

وهذا الشارع الطويل يؤدي إلى شارع الأزهر، وهذا شارع الموسكي، الموازي للشارع الكبير فيه جميع الصناعات، والمحلات الآن مغلقة لعطلة

---

(١) كلمة الخازندار تركية تعني خازن بيت المال، أي وزير المالية، وكانت وظيفة محترمة في العصر العثماني، و يرجع أن منزل (خازندار مصر كان بهذا الميدان) فاشتق منه هذا الأسم.

العيد. سرنا مع الشارع الكبير تتفرع منه شوارع كبيرة وصغيرة حتى وصلنا إلى ميدان فسيح جامع على اليمين وآخر على اليسار، دخلنا إلى الجامع الأزهر، الجامع كان يعج بالمصلين، ولفت نظري أن في هذا الجامع أكثر من مئذنة خاصة وأن فيه مئذنة أخرى لها رأسان، الجامع مليء بالمصلين، الترنيمات والتكبيرات والتهليل. أدينا صلاة السنة وجلسنا. أذن للصلاة فقام أحد المشايخ، يلبس عمامة وطربوشاً أحمر يخطب خطبة العيد، وبعد أن فرغنا من الصلاة تفرقت جموع المصلين إلى حلقات وكل حلقة جلس على رأسها شيخ بدأ يعظ المصلين، وأمام إحدى الحلقات جلسنا نستمع إلى الدرس، كان الموضوع حول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد» الآية. كان درساً بليغاً من شيخ تدل ملامحه على الصلاح.

خرجنا من الجامع الأزهر وأشار الوالد إلى حيث الجامع الآخر قائلاً هذا مسجد (الحسين) فدخلنا، وأدينا ركعتي السنة تحية للمسجد، وكان يعج بالناس و يزورون حول مقام كبير، فقال ان هذا قبر الحسين رضي الله عنه. وبعد الزيارة خرجنا إلى إحدى المقاهي المجاورة لمسجد الحسين، وجلسنا فيه وطلبنا شاياً أخضر وطبقاً من الفول لكل واحد، وأكلنا وشربنا من هذا الشاي الذي أعجبني فطلبت ابريقاً آخر، قال إبراهيم الجربوع هذه (قهوة الفيشاوي) وهي مشهورة في مصر، وصاحبها هذا الشيخ الذي يجلس وحوله بعض الرجال ومن ملابسهم تظهر عليه النعمة والجاه.

تركنا هذه المقهى وسلكنا طريقاً آخر في عودتنا، كان شارعاً صغيراً وحوله مداخل خينان كثيرة عرفت أن هذا شارع الموسكي، وخرجنا منه تاركين العتبة الخضراء إلى اليسار ودخلنا شوارع جانبية أدت بنا إلى شارع يقع شرقي سور حديقة كبيرة واسعة بها أشجار عالية قيل لي إن هذه حديقة الازبكية وأمام فندق اسمه (فندق اسكندرية الكبرى) توقفنا فقال الوالد

لإبراهيم الجربوع نطلع نسلم على (التميمي)، فصعدنا سلالم الفندق إلى حيث الدور الرابع، فطرقنا باب إحدى الغرف خرج إلينا رجل يرتدي الملابس العربية فسلمنا عليه، وعرفه الوالد بي إنه محمد العبد الرحمن التميمي من أهل القصيم ويقيم في هذا الفندق منذ عشرين سنة وهو من تجار العقيلات.

ويقع هذا الفندق مباشرة أمام سور الأزبكية من الشرق، ويقابل شارع فؤاد الذي امتد الآن بعد أن فصل الحديقة إلى جزئين، وقد بقي هذا الرجل مقيماً إلى سنة ١٣٨٠هـ عندما توفي وهدم الفندق واقيم مكانه مبنى آخر حديث.

سلكنا طريق عودتنا من عند التميمي شارعاً آخر يقع غربي حديقة الأزبكية شارع كبير[١]، لكنه الآن هو شارع الجمهورية، اخترقناه حتى وصلنا إلى ميدان المحطة أو محطة مصر. دخل الوالد إلى أحد المكاتب وأمام شباك يجلس داخله أحد الموظفين ناوله نقوداً لاأعرف عددها فأعطاه مقابلها أوراقاً ثلاثاً لركوبنا القطار المتجه من المحطة إلى (المرج) وفي المحطة أمام قصر القبة توقف القطار ونزلنا منه إلى شارع ترعة الجبل حيث اسطبل الشيخ فوزان، فوجدنا أرض الاسطبل مفروشة بالسجاد العربي وممتلئاً بالعقيلات، فسلمنا على الشيخ فوزان الي عرفنا على شخص كان يجلس إلى جواره قائلاً: الشيخ عبد الله إبراهيم الفضل من الجماعة ــ أي من أهل القصيم ــ وقد جاء ليتسلم أعمال الوكالة العربية السعودية في القاهرة بعد احالتي إلى (التقاعد)، وسلمنا على الحاضرين: عبد الله العيسى ومحمد العيسى ــ عبد الله أبا الخيل ــ عبد العزيز السابق، وجمع كبير لم أعرف أسماءهم لكنهم بالقطع من العقيلات الذين يهتمون بتربية الخيول.

---

(١) كان يطلق عليه شارع إبراهيم باشا في ذلك الوقت.

تناولنا طعام الغداء ثم ركبنا القطار القطار عائدين إلى القاهرة بعد صلاة العصر بالمسجد الذي بجوار الفندق. قال الوالد سوف أذهب إلى الفندق للنوم، أخذني إبراهيم الجربوع ــ رحمه الله ــ من يدي قائلاً: تعال معي، أبوك (شايب) أي رجل كبير ويحب النوم أما نحن فقد نذهب إلى (الفرجة) على مصر.

سرنا من المسجد إلى ميدان الخازندار، وسور الحديقة الكبيرة (الأزبكية) فدخلنا من بابها الشمالي وتمشينا فيها (وعلى إحدى المصاطب) جلسنا قليلاً، فحضر أحد بائعي (اللبن) يحمله في أباريق بيض وصب لنا أكواباً سأله إبراهيم الجربوع: بكم (الكوز) يعني الكوب، قال ثلاثة أكواب بقرش (صاغ) شربنا كوبين ونقده القرش، نهضنامن جلوسنا وخرجنا من الباب الجنوبي للحديقة أمام مبني كبير، توقفنا وكان مكتوباً عليه (دار الأوبرا المصرية).

وهو مبنى يرتفع إلى ثلاثة طوابق وأمامه حديقة فيها تمثال لرجل يركب حصاناً ويشير بأصبعه قال لي إبراهيم الجربوع: هذا تمثال إبراهيم باشا، فوقفت أمام التمثال أرقبه وهو يشير بأصبعه أمامه شارع يسمى شارع الصيارفة وأظنه شارع (عبد الخالق ثروت) وشارع آخر مواز له وفيه الكثير من الصاغة وبائعي الذهب وهو شارع (عدلي) ثم شارع آخر سرنا إليه وبجواره مبنى كبير عرفت أنه فندق كبير هو (الكونتننتال) لايسكنه إلا أكابر الناس، هكذا قال لي إبراهيم، ثم سرنا بمحاذاة سور الأزبكية إلى شارع طويل فيه متاجر كثيرة عرفت أنه شارع فؤاد.

ثم عدنا من حيث أتينا وحول سور الأزبكية توقفنا أمام مبنى في نهاية السور إلى الجنوب الشرقي ويطل على العتبة الخضراء وجدنا لافتات كبيرة تشير إلى حفل أقامته الآنسة أم كلثوم وغنت فيه: ياليلة العيد ــ أفديه إن حفظ الهوى، وإعلانات أخرى لمبنى آخر عرفت أنه البريد والاطفاء. عدنا

إلى الفندق ووجدنا الوالد قد افاق من نومه وخرجنا سوياً إلى بيت الشيخ فوزان السابق في شارع محمد سعيد، فقد أقام دعوة عشاء للشيخ عبد الله إبراهيم الفضل والموظفين السعوديين القادمين لاستلام العمل وعرفنا أنهم قد اشتروا بيتاً آخر ليكون مقراً للقنصلية بدلاً من بيت الشيخ فوزان الذي أمر جلالة الملك عبد العزيز بأن يكون ملكاً للشيخ فوزان والمقر الجديد في الجيزة.

عدنا إلى الفندق بعد حفل العشاء وبتنا ليلتنا، وفي الصباح خرجنا إلى السوق فقد انتهت الأجازة وفتحت الحوانيت فذهبنا إلى شارع الصاغة حيث قابلنا أحد الصرافين و يدعى (كيراكوسيان) وهو أرمني و يعمل وكيلاً لعلاوي الكباريتي في عمان، وسلمه الوالد النقود التي كانت معه وأخذ من إيصالاً بالتحويل وطلب إليه أن يبلغ علاوي الكباريتي بأن نصف هذا المبلغ يخص عبد العزيز الراشد يحولها له في بغداد وحول إبراهيم الجربوع نقوده أيضاً إلى علاوي الكباريتي.

وذهبنا إلى إحدى المكتبات وتقع في حواري حالياً مابين شارع قصر النيل وشارع عبد الخالق ثروت و يسمى شارع (الكتبة) وأعطيناه بعض المعلومات وكتب خطاباً باللغة الانجليزية يطلب فيزاً دخول فلسطين ذهبنا به إلى حيث السفارة البريطانية ووعدنا بعد يومين للحضور إلى السفارة بعد الحصول على جواز سفر من القنصلية السعودية.

وفي صباح اليوم التالي ذهبنا إلى القنصلية السعودية بالجيزة حيث ركبنا (الترامواي) رقم (١٥) وقفنا في ميدان الجيزة ومشينا إلى حيث حديقة الحيوان ثم مبنى القنصلية السعودية وهو المبنى الذي كانت تستخدمه القنصلية حتى عام ١٣٩٥هـ عندما هدمت وبقيت أرضاً حتى هذه اللحظة، دخلنا المبنى وإلى المفوض في إصدار الجوازات. وتقدمنا بطلب وإصدار جواز سفر للوالد وأنا برفقته وجواز لإبراهيم الجربوع، وأخذنا الجوازات وذهبنا إلى

القنصلية البريطانية في اليوم التالي، وبعد أن اطلعوا على جوازات السفر أعطونا ورقة مرور للذهاب إلى فلسطين وفيزا على جواز السفر.

وبعد انتهاء الاجراءات الرسمية عدنا إلى الفندق وفي المساء ذهبنا إلى سوق الموسكي وفي أحد الأزقة الضيقة منه دخلنا أحد الحوانيت ومكتوب على المحل (بياع العطور والبخور) محمد المغربي، فسلم الوالد على الرجل وطلب منه بعض العطور والبخور والهيل وتركناه إلى الفندق.

إبراهيم الجربوع كان قد آثر البقاء في مصر لانتهاء بعض أعماله وعاد إلى بلبيس وبقيت أنا والوالد، وكان رحمه الله قليل الكلام وإبراهيم الجربوع بالرغم من أنه يكبر الوالد بأعوام، إ أنه مرح وطويل البال ويشبع هوايتي في حب الاستطلاع.

وفي يوم الاثنين ١٤ ذى الحجة ١٣٦٦هـ كنا على موعد مع عبد العزيز الحماد في مقهى بالقرب من فندق اسكندرية الذي قرر أن يرافقنا في رحلة العودة إلى فلسطين والعراق، جلسنا في مقهى بانتظاره وبينما نحن جلوس لفت نظر الوالد شخص يرتدي الملابس العربية، فناداه باسم (عبد الله) حضر إلينا وسلم علي وعلى الوالد الذي عرفني بنه الشاعر (عبد الله اللويحان) وكان يعرفه صديقاً عندما كان يسكن في مدينة بريدة ويشتغل في تجارة المواشي في سوق بريدة.

سأله الوالد عن أخباره وعن سبب حضوره إلى مصر، وماهي أخبار الشعر معه في هذا البلد قال: لقد حضرت إلى مصر بقصد العلاج، وهناك بعض الأمراء وأنا أقيم معهم، وقال شعراً:

ان مت في شارع فؤاد ادفنوني
ياطأ على قبري بنات مزاين

ماعادا كذب عقب ماشافت عيوني
بنات من نسل البوش والسلاطين[1]

قال هذه القصيدة لم تنته بعد والله أعلم أني مثل (بصري) يوم (خلوه) تركوه يحج وعندما دخل إلى مكة وكان شاعراً مشهوراً في الغزل وأراد له أولاده أن يحج وأن يتعبد في أواخر أيامه، لكن الشعر تسلط عليه وهو يرى بنتاً جميلة تطوف حول الحرم فقال:

التايه إلى جاب بصري يقنه
جدد جروح العود والعود قاضي

إلى آخر القصيدة التي لم أحفظها. وقد ضحكنا من حديثه الشيق، وتركنا مودعاً حيث هو على موعد، وفي هذه الأثناء حضر عبد العزيز الحماد وجلسنا معه بعض الوقت واتفق مع الوالد على أن يكون سفرنا إلى فلسطين يوم الخميس الموافق ١٧ ذو الحجة ١٣٦٦هـ وغداً نتقابل في بيت الشيخ فوزان السابق في شارع محمد سعيد لوداعه.

وفي الموعد المحدد تركنا الفندق إلى بيت فوزان حيث ركبنا (تراموای) رقم ١٥ يسير من ميدان الخازندار ــ ميدان العتبة ــ شارع عبد العزيز ــ شارع باب اللوق ــ ميدان الاسماعيلية الذي هو الآن ميدان التحرير ــ شارع القصر العيني حيث توقفنا في محطة له أمام شارع محمد سعيد وذهبنا إلى البيت ووجدنا عبد العزيز الحماد وعثمان الجلاجل الذي ذكرنا أن الشيخ فوزان السابق ذهب مع عبد الله الفضل إلى الاسكندرية لأمر هام حمله سلام الوالد للشيخ وتركنا البيت إلى الفندق وبتنا ليلتنا، وفي الصباح الباكر اتجهنا إلى محطة مصر حيث استقلينا القطار المتجه إلى

(١) البوش جمع باشا وكانت هذه المسميات منتشرة في تلك الأيام.

القنطرة الشرقية مروراً بالاسماعيلية ــ القنطرة الغربية التي وصلنا إليها قبل صلاة العصر وركبنا المعدية إلى القنطرة الشرقية.

وفي مبنى الجمارك قابلنا عبد العزيز الرميح وبعد الانتهاء من الاجراءات الجمركية ذهبنا إلى بيت سليمان الرميح للإقامة بقية اليوم حتى قيام قطار فلسطين، الذي يتحرك من القنطرة الشرقية في منتصف الليل.

تحرك بنا القطار في الموعد المحدد وكان الوالد يحمل نقوداً مصرية تزيد على مائتي جنية يحملها في جيبه وكان خروج العملة في ذلك الوقت ممنوعاً، وكان مسئول الجوازات يومئذ أحد أبناء العقيلات وهو مطيع السليمان النغيمشي من أهل بريدة، عمل بالحكومة البريطانية هو وأخوه أيام الانتداب البريطاني على فلسطين وقد قابلناه في بيت الرميح في القنطرة وعلمنا منه أنه سوف يكون المسئول في القطار.

وكانت الاجراءات المتبعة على هذا القطار بعد أن يتحرك من محطة القنطرة يتسلمه مندوب من الحكومة المصري ليقوم بالتفتيش في حقائب المسافرين عن العملة المصرية ويصادرها من الركاب، وكان مطيع قد سلم على الوالد في بيت سليمان الرميح في القنطرة وقبل أن يقوم المفتش المصري جاء إلينا مطيع يسأل إن كان معنا نقود فأبلغه الوالد بوجود مائتي جنية مصري معه أخذها منه وخمسين جنيها مع عبد العزيز الحماد، وجاء المفتش وبحث في الأمتعة ولم يجد شيئاً، وفي محطة الدويدار توقف القطار ونزل المفتش المصري وصعد إلى القطار مفتش يتبع حكومة فلسطين، عاد إلينا مطيع وسلمنا النقود وحرص علن أن يولينا خدمة خاصة من زملائه في القطار، سار القطار يتهادى في صحراء سيناء ومع طلوع الفجر وصل إلى محطة رفح، وبقى فيها نصف ساعة ثم تحرك، ودخلنا خان يونس ثم دير البلح، وأخيراً وصلنا غزة.

وفي محطة غزة فوجئنا بما لم يكن في الحسبان، لقد قررت الحكومة في فلسطين أن تذهب العربات القادمة من مصر بكامل حمولتها إلى حيفا في حصار تام حتى أدخلت العربات في قلب الكورنتينا، وتم حجزنا ثلاثة أيام خرجنا بعد ذلك إلى مدينة حيفا وفي أحد الفنادق نزلنا وأقمنا ليلتنا وفي الصباح الباكر ركبنا إحدى الحافلات إلى نابلس ومنها ركبنا التاكسي إلى الأردن، ونزلنا من الفارعة ـ أريحا ـ جسر اللنبي ـ الشونة ـ السلط ـ صويلح ـ عمان.

السفر إلى العراق

وصلنا إلى عمان يوم الأربعاء ٢٠ ذو الحجة ١٣٦٦هـ/الموافق ٥ نوفمبر ١٩٤٧م.

بقينا في عمان ثلاثة أيام أخذ الوالد يقلب أموره ويحاسب نفسه على تجارته طوال عامين أو تزيد وعاد بذاكرته إلى كلام العراف المغربي ليجد أننا قد خسرنا في بضاعتنا مايزيد على ألف ومائتي جنية وأن معه من رأس المال حوالي ألف وخمسمائة جنية أو دينار عراقي من رأس المال الذي يصل إلى قرابة ثلاثة آلاف دينار.

وكان قراره المفاجيء السفر إلى العراق ليخرج في بضاعة من الأقمشة والمواد الغذائية التي ربما تعوض بعض الخسارة، وكان مرض الكوليرا قد بدأ ينتشر في البلاد المجاورة ولم نكن على حيطة من أمرنا فنأخذ شهادات من الكورنتينا في مصر، أو من حيفا، وتجنبنا عناء ماتحملناه في طريقنا من عمان حتى وصولنا إلى بغداد.

ركبنا إحدى السيارات من عمان وكنا: عبد العزيز الحماد، الوالد، مررنا بنقاط الحدود الأردنية العراقية ـ جفور ـ جفيفا ـ الحيانية ـ الرطبة.

وفي الرطبة صمم أحد الضباط العراقيين على احتجازنا وبعض الرجال من قبيلة عنزة كانوا يركبون معنا في السيارة الكبيرة التي أقلتنا من عمان، وبقينا في الرطبة تحت الإشراف الطبي لمدة ثلاثة أيام بالرغم من أن الوالد أفهم الضابط بأننا سبق أن احتجزنا في حيفا ولولا تدخل المرحوم الشيخ

عبد العزيز الصقير[1] وكان مسئولاً في السفارة السعودية في بغداد لعدنا

(١) بعد صدور هذا الكتاب إجتمعت بالأستاذ محمد العبدالله الصقير نائب رئيس الصندوق السعودي للتنمية شقيق المرحوم عبدالعزيز الصقير الذي ورد ذكره.

وحضر هذه المقابلة الدكتور سفيان عبد الرزاق الحسن وهو من أبناء العقيلات وبعض الأخوة ممن لهم اهتمامات في تاريخ العقيلات.

أقول ي هذا الأجتماع عدت بذاكرتي إلى الوراء وتذكرت أننا زرنا عبد العزيز الصقير في بيته وكان في استقبالنا ثلاثة من الشباب قدمهم الينا علي ــ حمد محمد كان أكبرهم علي متقدم في دراسته، أعمارهم تتراوح بين الثامنة والثانية عشر أذكر أن أحدهم كان ممتليء الجسم. قال سفيان هذا الدكتور حمد رئيس جمعية الهلال الأحمر السعودي أما علي فهو الآن سفيراً بوزارة الخارجية ــ عبد العزيز الصقير رحمه الله كان من العقيلات الأوائل اختاره جلالة الملك عبد العزيز ــ طيب الله ثراه ــ ممثلاً له في بغداد وبالرغم من عظم المسئولية فإنه لم ينس رعاية أخوته وادخالهم إلى المدارس حتى يصبحوا من الشباب المؤهل لخدمة بلادهم.

في هذه اللحظة تمنيت أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء إلى يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة من عام ١٣٦٦هـ هذا اليوم الذي زرنا فيه بيت عبدالعزيز الصقير أن أخذ من المعلومات الغزيرة الذي كان معروفاً بها حتى يأتي هذا الكتاب أو غيره مليئاً بقصص الكفاح والبطولة التي عرفت عن العقيلات. فقد استطاع هذا الرجل أن يبقى في منصبه أكثر من خمسين عاماً عرف وعرفه أكثر القبائل العربية وعرف تقاليدها وعاداتها واستطاع أن يلم بأنسابها ــ رحمه الله رحمة واسعة.

أما عن الدكتور سفيان فهو وكثير من أبناء العقيلات حضروا إلى البلاد واصبحوا من أعمدة الأعمال الرسمية التي تخدم التنمية الشاملة في بلادنا العزيزة على أنه يذكر أن هناك العديد من أبناء العقيلات موجودين بالعراق وأكثرهم يحمل الجنسية العراقية ــ هذه معلومة أسوقها ولازلت أنادي بأن على أبناء العقيلات أينا وجدوا مسئولية البحث عن جديد حتى تضاف إلى تراث أباءهم وأجدادهم ماغاب عني والله ولي التوفيق.

المؤلف

من حيث أتينا، وفي اليوم الرابع سمح لنا بمواصلة السفر إلى بغداد.

وفي أحد الفنادق بصوب الكرخ توقفت بنا السيارة ونزلنا إلى الفندق وكان يسكنه آنذاك صالح العبد الله الصعب، سليمان البراهيم الخطاف ـ صالح العبد الرحمن الحصان ـ محمد البراهيم الجربوع ـ أحمد بن عبد الله الأحمد ـ سليمان الرميان، كانوا يشترون بضائع من الأقمشة والدلال ويسوقونها في أسواق القصيم.

قمنا بجولة في أسواق بغداد وتذوقنا أصناف الأكلات العراقية، وبدأت أخرج مع محمد البراهيم الجربوع إلى أسواق بغداد التجارية والتفرج على معالمها ثم نعود إلى الفندق بعد أن اجتمع الوالد إلى الموجودين، فعرف منهم على نوع البضائع التي سيحملونها معهم وقرروا التنسيق فيما يحملونه من البضائع، فاشترى سليمان الخطاف خمسة حمول من النحاس (صفائح) من النحاس واشترى الوالد بعض أنواع من الأقمشة الشتوية حمولة أربعة جمال وحمل جملاً من الدلال البغدادية.

وتقرر أن يكون رفيق الرحلة سليمان الخطاف ـ الوالد ـ وأنا معهما.

وأتفق مع التجار على تحميل البضائع بإحدى السيارات إلى النجف لتسلم إلى (عطاء) وكيل العقيلات هناك.

بغـــداد

وصلنا إلى بغداد يوم الاثنين ٢٦ ذو الحجة ١٣٦٦هـ وفي صوب الكرخ اتجهنا إلى أحد الفنادق.

لقد أخذت بغداد حظها من المؤرخين بفضل مانشر عنها من المؤلفات الكثيرة سواء منها القديم أو الحديث.

لكن هناك جانباً من تاريخ بغداد لم يتطرق إليه الباحثون، وهو أنه قد سكن العراق فئة لم تأخذ حظها من البحث والدراسة، وكان لها تأثير كبير على تاريخ بغداد، هذه الفئة هي (العقيلات). وسأحاول في الأسطر القليلة الآتية أن أورد نبذة عن تاريخ هذه الفئة.

العقيلات [١] : كان العراق أكثر البلدان المجاورة للجزيرة العربية وجوداً للعقيلات وهى الفئة التي هاجن من بلدان نجد خلال القرن العاشر الهجري عندما احتلت الدولة العثمانية العراق سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٤م، والحجاز ٩٢٦هـ/١٥٢٠م فهاجر الكثير من بلدان نجد طلباً للرزق وكونا فرقاً داخل الجيوش العثمانية في الزبير والبصرة وبغداد: أدلاء على قوافل التجارة، ومتعهدين لقوافل الحجاج. ولم يقتصر دورهم على ذلك فقط، وإنما كان لهم دور رئيسي في اخماد الفتن وشاركوا الولاة العثمانيين في الوقوف معهم ضد الغزاة الطامعين في البلاد [٢].

---

(١) كتاب العقيلات للمؤلف، ص ١٧.

(٢) ويقصد بهم الدولة الصفوية بإيران والتي كانت دوماً تطمع في احتلال العراق.

ففي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين أثناء حكم المماليك ساد جو من الصراعات والفتن خاصة أثناء ولاية عبد الله باشا على العراق عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م وضعف هذا الوالي الذي لم يستطع أن يحد من أطماع الفرس، فقد استطاع فريق منهم أن يبسط نفوذه على هذا الوالي وزين له حب الشهوات وجمع المال فانغمس في الملذات تاركاً للفرس السيطرة على مقدرات البلاد فاغتنموها فرصة واحتلوا البصرة.

فأوعزت الدولة العثمانية إلى حسن باشا والي كركوك بالهجوم على الفرس في المناطق المتاخمة لحدود منطقته في محاولة لاشغالهم والسيطرة على الموقف حتى تأتي النجدات لانهاء احتلال البصرة ولطرد الفرس من بغداد، ولكن حسن باشا وجد نفسه يحارب في معركة خاسرة، فالفرس يحاربونه من الداخل والخارج فكتب للدولة يخبرها بما حدث و ينتظر منها ارسال الامدادات، فأرسل السلطان عبد الحميد الأول سليم باشا عام ١١٩١هـ/١٧٧٧م إلى بغداد لمساعدة الوالي عبد الله باشا على استعداة البصرة، لكن الفرس استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم عليه هو الآخر، فانغمس في الملذات و بذلك انصرف عن الهدف الذي جاء من أجله.

وعمت الفوضى بغداد وقتل الوالي عبد الله باشا وكثر القتل والسلب والنهب ووقفت جيوش حسن باشا خارج بغداد تحارب في جبهتين: الفرس من الخارج، وسليم باشا والموالين له من الداخل، وانت هناك فرقتان من الجيوش العربية المرابطة حول بغداد هي (فرقة عقيل) أهل نجد وفرقة آل عبيد وقفت على الحياد ولم تدخل في هذه الصراعات.

واجتمع أهل بغداد ومعهم فرقة عقيل أهل نجد ومحمد بن شاوى زعيم آل عبيد يتدبرون أمرهم فكتبوا إلى الوالي حسن باشا في كركوك يطلبون إليه الحضور بنفسه لايجاد حل لهذه الصراعات، وفوض أهل بغداد فرقة عقيل بالوقوف بين المتحاربين وفرضوا هدنة لمدة شهر حتى يحضر الوالي

حسن باشا من كركوك، ويأتي فرمان من الدولة بتعيين والٍ جديد لبغداد. وقد استطاعت فرقة عقيل أن تسيطر على الموقف وفرض الهدنة على المتحاربين.

وقد كان للعقيلات مواقف أخرى من الصراعات الداخلية خلال عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م حينما اشتد الصراع بين الولاة، كان العقيلات يصدون الغزاة عن بغداد، وحفظوا الجانب الغربي من بغداد، وعندما سيطر الوالي حسن باشا على الموقف، فشكرهم وكافأ أكابهم على غيرتهم، وحميتهم الوطنية.

وفي ذلك العهد[1] ازداد رخاء المدينة وتضاعف عدد السكان وبدأ الرحالة الأوربيون يزورون بغداد ويتحدثون عنها بوصفها ملتقى للقوافل ومركزاً كبيراً للتجارة مع الجزيرة العربية وبلاد فارس وتركيا، وكانت طبقة الموظفين من الأتراك والمماليك أما التجار فكانوا من العرب.

تلك ملاحظة أردت أن أضيفها خاصة وأنني في هذه الرحلة أتعرض إلى رحلة من رحلات العقيلات.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٤٢٠ — ٤٣١.

المخاطر

كنا في فندق صوب الكرخ ببغداد في جلسة سمر يتحدث العقيلات فيها عن أسفارهم والمخاطر التي تعرضوا لها عندما سكت صالح العبد الله الصعب، وهو أحد الموجودين، قليلاً وقال: لقد كنا في الغرفة المجاورة أنا والمرحوم صالح العبد الله البطين، ومعنا خالد ومشاري المدلق ومحمد العبد الله الحميد، نشتري بضاعة بقصد السفر بها إلى القصيم في شتاء عام ١٣٦٤هـ.

نزلنا إلى أسواق بغداد واشترينا البضائع، اشتريت بضائع من الأقمشة الشتوية وكذلك خالد مشاري المدلق أما صالح البطين فقد اشترى بضاعته من النحاس والدلال وبعض مواد الصناعة مثل القصدير والنشادر وشحناها على السيارات من بغداد إلى النجف ومن هناك اشترينا الإبل وأخرجناها مع الخويا إلى الدويد في السعودية.

وبعد أن انتهينا من النجف ركبنا مع البضائع في السيارات، وعند وصولنا إلى الدويد وردت إبل خالد ومشاري فحملوا بضائعهم وتركونا على المورد وبقيت أنا وصالح لمدة يومين حتى حضرت إبلنا وتجهزنا للسفر تاركين الدويد إلى مورد الحيانية قطعنا مسافة أربعة أيام حيث بضاعة صالح البطين من النوع الثقيل ويستحيل مع ثقلها السفر بالليل.

وجدت نفسي في موقف حرج، بضاعتي من الأقمشة وسفرنا بهذه الطريقة البطيئة قد يستغرق أياما كثيرة حتى نصل إلى القصيم، وخشيت أن يذهب موسم الشتاء وتبور بضاعتي، وعرضت الأمر على صالح ووافق

أن أتركه هو وخويه يردون إلى الحيانية في طريقهم إلى حائل أما أنا فاختار طريقاً إلى مورد لينه نواصل الليل بالنهار حتى نصل سريعاً وهكذا افترقنا.

وصلت إلى القصيم بعد أسبوع أدخلت بضاعتي إلى السوق ووافقت سوقاً طيباً ثم تركت بريدة متوجهاً إلى العيون (عيون الجواء) أقمت عند أهلي عشرة أيام وفوجئت بأن عبد العزيز البطين أخو صالح يسأل عني لأن صالح تأخر عن الحضور، وانشغل أهله يبحثون عنه في كل مكان مضى شهر ولم يصل وتواترت عنه الأخبار.

يقول صالح الصعب: علمت من تسلسل الأحداث أن صالح البطين وخويه رحمهما الله تركا مورد الحيانية، وفي أحد كثبان الرمال توقفا للمضحا وأثناء إعدادهما للطعام حضر إليهما أحد المسافرين أكرماه، فسألهما عن وجهتهما، قال أنا ذاهب إلى حائل ففرح الاثنان بهذا المرافق فهم بأشد الحاجة إلى يد تساعدهما على تحميل صفائح النحاس والدلال الثقيلة.

كان مع صالح من الإبل عشرة: خمسة محملة بالنحاس، وثلاثة محملة بالدلال والقصدير والنشادر واثنان للركوب، وجمل الثاية كان صالح يحمل بندقية (أم خمس) والمسافر الذي يرافقهما يحمل بندقية و يدعي أنه (من الخويا) أي من رجال الحكومة في مهمة رسمية.

وبعد أن قطعوا مسافة كبيرة من النفود، وقبل الحجرة توقفوا للمعشى وباتوا ليلتهم وفي الصباح ذهب الخوي لتجميع الإبل من المراعي وقام صالح بجمع الدلال، ومواد الأكل استعداداً للتحميل وكانت البندقية التي يحملها قد تركها على أحد الأشدة، قام المرافق باطلاق الرصاص على صالح فأصابه في رجليه، وزحف باتجاه البندقية لكنه عاجله برصاصة أخرى سقط على أثرها صريعاً بين الحياة والموت، سمع الخوي على البعد

طلقات الرصاص فركب أحد الجمال باتجاه مكانهم وعلى البعد شاهد صالح طريحاً على الأرض، فحاول الهرب لكن القاتل قام باطلاق الرصاص على الجمل الذي يركبه فوقع الجمل على الأرض ووقع الخوي من ظهره فقام القاتل باطلاق الرصاص عليه فمات في الحال.

ترك القاتل الإبل الباقية تهيم في مراعيها حتى لايتعرف أحد على (وسم) البطين على الإبل، وغاب القاتل عن مكان الحادث وأحضر معه أعوانه معهم جمال أخرى حملوا عليها البضائع وأخفوا معالم الجريمة بدفن الاثنين في الرمال.

يقول صالح الصعب ـ الذي روى هذه القصة ـ كان مشاري وخالد المدلق قد وصلا إلى بريدة قبل وصول صالح الصعب بحوالي عشرة أيام، وقد أخبروا عبد الله البطين وأخاه عبد العزيز بأنهم تركوا صالح في الدويد وبعد أن وصلت أنا إلى بريدة بعدهم بسبعة عشر يوماً، كان صالح لم يحضر فاتصلوا بمشاري المدلق يسألونه، وبوصولي تأكد لدى الجميع أن هناك حادثاً ما وقع، وبدأوا يبحثوا عنه اتصلوا بإمارة القصيم، التي اتصلت بالمراكز التابعة لها وعلى إمارة حائل ومراكزها دون جدوى.

كان مشاري المدلق هو الوحيد الذي يعرف بضاعة صالح لأنهم كانوا في بغداد يدخلون الأسواق فتبرع مشاري بالسفر إلى حائل فهي أقرب البلدان في طريق صالح البطين، ووصل مشاري إلى مدينة حائل وعند أحد التجار الذين يعرفهم أقام في بيته وكان يحضر إلى السوق يومياً، كانت المفاجأة فقد وجد بعض الدلال لدى أحد التجار يعرضها للبيع، فسأل التاجر لمن هذه البضاعة فقال اشتريتها من تاجر اسمه (معجب) من كبار تجار حائل وهو من الأشخاص الذين يتعاملون مع البدو، وكثيراً (ماينوخ) عليه الكثير من القبائل، بمعنى أن بيته مفتوح للضيفان من البدو، يقيمون في بيته ويشترون ويبيعون بضائعهم عند هذا التاجر.

قابل مشاري التاجر معجب وسأله عن صاحب هذه البضاعة قال إنهم تجار من البدو أحضروها من العراق وهم موجودين عندي في البيت، فعدد عليه أنواع البضائع التي أحضروها، وتعرف مشاري على البضاعة وأخبر التاجر معجب بقصة صالح البطين وطلب إليه أن يماطل في تسديد قيمة البضائع حتى يتمكن من ابلاغ أمير منطقة حائل بالقصة، وعند ذلك تم إلقاء القبض على الجناة الذين اعترفوا بأنهم كانوا أربعة يتابعون مسيرة صالح البطين وصالح الصعب منذ أن تركا مورد الدويد وكان القصاص.

وبعد، فهذه قصة أحد شباب العقيلات كما رواها أكثر من شخص منهم بعد أن سمعتها من صالح الصعب ونحن في فندق صوب الكرخ في بغداد.

غادرنا بغداد صباح يوم الأربعاء ٥ محرم ١٣٦٧هـ، والوالد وسليمان الخطاف، في إحدى السيارات المتجهة إلى الرقة، وتوقفنا فيها وقصدنا أحد الفنادق طلباً للراحة.

والرقة مدينة كبيرة تشتهر باللبن الزبادي والعيش المقمر الذي تناولناه على مائدة الغداء، وأقمنا ليلتنا فيها، يقول عنها ياقوت[١]: مدينة مشهورة على الفرات من الجانب الشرقي، ويقال لها الرقة البيضاء، أرسل سعد بن أبي وقاص والي الكوفة في سنة ١٧هـ/٦٣٨م جيشاً عليه غياض بن غنم فقدم إلى الجزيرة فبلغ أهلها خبره فبعثوا إلى عياض يطلبون منه الصلح فقبله. قال سهل بن عدي:

وصادفنا الفرات غداة سرنا
إلى أهل الجزيرة بالعوالي

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٣ ص ٥٨ ــ ١٦٠.

أخـذنـا الـرقـة الـبـيـضـاء لما
رأيـنـا الـشـهـر لـوح بـالهـلال

وصـار الخـرج ضـاحـيـة الـيـنـا
بـاكـنـاف الجـزيـرة عـن تـعـالـى

وفي الصباح الباكر قصدنا موقف السيارات المسافرة إلى الحلة، ثم عبرنا نهر الفرات وقد توقفنا في الحلة وهي مدينة كبيرة وجلسنا في إحدى المقاهي لتناول الشاي وطلب الراحة وبعد ذلك نستقل سيارة أخرى إلى النجف.

والحلة يقول عنها ياقوت(١) : مدينة مشهورة باسم (حلة بني مزيد) بين الكوفة وبغداد، وكانت تسمى الجامعين وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الأسدي، ثم انتقل في محرم ٤٩٥هـ/١١٠١م إلى موضع آخر بنى فيه المساكن الجليلة والدور الفاخرة، وقد قصدها التجار فصارت من أفخر بلاد العراق وأحسنها.

بعد صلاة الظهر ركبنا إحدى السيارات إلى النجف، وكان الجو صيفاً، اتجهنا بعد أن تركنا الحلة إلى الغرب، وتوقفنا في أحد المهاد للراحة، ثم واصلنا المسير وكنت أشاهد مع وهج الشمس المشهد الحسيني. القباب المطعمة بالذهب ينعكس مع ضوء الشمس، وقد هالني هذا المنظر، وكلما اقتربنا من النجف بدأت تلوح القباب المزركشة باللون الأخضر والمطلية بالذهب.

وصلنا إلى النجف قبل غروب الشمس، وقصدنا إلى (خان عطاء)(٢)

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٢٩٤.

(٢) عطاء العطاء من أهل الجوف ومقيم بالنجف وكيل لكثير من العقيلات.

فهو المكان الذي يؤمه العقيلات أو القادمون من الجزيرة العربية بقصد التزود بالمواد الغذائية من العراق.

وهو مبنى يضم غرفاً كثيرة مقابل ايجار زهيد للإقامة فيه حيث يتولى بالوكالة عن القادمين شراء المواد الغذائية والبضائع وتجهيزها. ذهبنا بالسيارة إلى الخان وانطلق أحد خويا عطاء ليبلغه عن قدومنا، حضر الرجل مرحباً وعارضاً خدماته، فأبلغه الوالد وسليمان الخطاف أنهما اشتريا بعض البضائع من بغداد وقد تصل غداً أو بعد غد على إحدى السيارات.

طلبوا إليه أيضاً تجهيز ثلاثة أحمال من الأرز العراقي (التمن) (والعنبر) وفي الصباح خرجنا إلى سوق الإبل جنوبي النجف واشترينا عشرة من الإبل اثنين لركوبنا، وثمانية لحمل البضائع، واشترى سليمان الخطاف ستة من الجمال وأصبح مجموع مامعنا جميعاً من الإبل ستة عشر رأساً أدخلناها إلى (خان عطاء) واشترينا لها الأعلاف، وفي صباح اليوم التالي أوقدنا النار ووضعنا علامتنا على الإبل ووضع سليمان علامته أيضاً.

كلفني الوالد بمهمة إحضار الأعلاف للإبل يومياً فكنت أخرج في الصباح إلى حيث سوق الأعلاف وأشتري حمل بعير من الأعلاف وقيمته تتراوح مابين ثلاثة إلى أربعة دنانير عراقية فكنت أشتري الأعلاف وأدخلها إلى الخان ثم أخرج في نزهة إلى أسواق النجف أتعرف على معالم المدينة، كنت أرى الزينات تنصب حول المشهد الحسيني والوفود تصل إليه من جميع أنحاء العراق فسألت الوالد قال انهم يستعدون (لعاشوراء).

في مساء يوم السبت ٨محرم ١٣٦٧هـ خرجت مع الوالد وسليمان الخطاف وصلينا صلاة المغرب في المسجد الكبير الذي يضم قبر علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ القبة الكبيرة مفروشة بالسجاد وبها قناديل من الذهب والفضة وفي وسط القبة المقام منقوش بصفائح الذهب وفيها ثلاثة

قبور سمعت الوالد يقول: إن أهل النجف يزعمون أن واحداً من هذه القبور هو قبر آدم والثاني قبر نوح عليهما السلام أما الثالث فهو قبر علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه.

أما الأعتاب حول القبور فهي من الذهب والفضة وعليها ستائر من الحرير الملون وتمت الزيارة والصلاة وقد سمعت ألفاظاً في الدعاء استغربتها مثل قول أحد الجالسين، حولنا: لا إله إلا الله ــ علي ولي الله.

عدنا بعد هذه الزيارة إلى الخان حيث اجتمعنا مع عطاء و بعض أصحابه من أهل النجف في ليلة سمر، تركونا منصرفين إلى شئونهم وفي الصباح الباكر سمعت مظاهرة كبيرة تسير في الشوارع، وجمع غفير من الناس يرددون كلاماً، لم أفهمه، فخرجت من باب الخان لأرى مايقوله الناس، لكن الوالد أدخلني بقوة، وحدثت مشادة صغيرة لاأذكر لها سبباً إلا أنه منعني من الخروج، وحاولت مرة أخرى، لكن الوالد أقسم بألا أخرج من الباب فأطعته على مضض، وأردت الطلوع إلى سطح الخان لكنه منعني أيضاً ولم تجد محاولاتي معه.

عرفت في صباح اليوم التالي أن هذه المظاهرة خرجت من المشهد الحسيني بمناسبة يوم عاشوراء ثم انقلبت إلى مظاهرة سياسية قتل فيها كثير من الناس، وهذا مافسر لي عدم رضاء الوالد عن خروجي، وكان الوالد يذكرني بها قبل وفاته بعامين رحمه الله.

موارد المياه

خرجنا من النجف صباح يوم الأربعاء ١٢ محرم ١٣٦٧هـ وكان معنا من الإبل ستة عشر رأساً: ثلاثة منها المطايا التي ركبناها وخمسة تحمل صفائح النحاس وستة تحمل بضائع من الأقمشة والأرز العراقي، وقد تم تحميل الإبل أمام باب الخان وتحركت القافلة خارج مدينة النجف وسمعت الوالد يقول لسليمان الخطاف سوف نضحي في قرية العذيب وهي لا تبعد سوى نصف مرحلة وصلنا إليها قبل الظهر.

والعذيب قرية صغيرة على جنب وادٍ كثير النخيل يقول عنه ياقوت [1]: ماء طيب وهي واه لبني تميم من منازل خارج الكوفة.

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص يقول: إذا كان يوم كذا فأرتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس، وشرق بالناس وغرب بهم وإذا خرجت منه دخلت إلى البادية.

وكنا قد أقمنا حول هذا الوادي بضع ساعات ثم ارتحلنا إلى حيث مورد واقصة [2] التي تبعد عنه بمرحلة وهي منزل بطريق الحاج ويقال لها واقصة الحزون قال الأعشى:

الا تفني خيارك أو تناهى
ركاءات قبل مايبكي الوليد

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٩٢.

(٢) نفس المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٥٤.

رأيــت الــقــوم تــارك لم أغــمــض
بــواقــصــة وشــربــنــا زرود

وقال الخضل بن عبيد:

الام اذا حــنــت قــلــوب مــن الهــوى
ومــالــي ذنــب ان تحــت الأبــاعــر

يــقــولــون لاتــنــظــر وقــاك بــلــيــة
بــلــى كــل ذى عــيــنين لابــد نــاظــر

وقد سرنا باتجاه أرض يقال لها البسيطة إذا جاوزناها دخلنا الرمل (النفود) في منتصف الليل توقفت القافلة وأقمنا ليلتنا قبل أن نصل إلى واقصة وفي الصباح الباكر بدأنا في نقل الأحمال على ظهور الإبل وهي صفائح نحاس ثقيلة، ولم يكن معنا أحد يساعدنا على التحميل فقد كنت الثالث مع الوالد وسليمان الخطاف، يقوم الأثنان بوضع (فردة)صفائح النحاس على ظهر الراحلة في مبركها وعلى أن أستند عليه حتي يأتيا بالثانية ليضعاها و يربطاها بالحبال مع غيرها، ولكنني أخفقت في حفظ توازني في العديد من المرات فإذا وضعوا فردة النحاس على ظهر الراحلة وقعت مني الفردة الأخرى وقد عانيت كثيراً، بالرغم من أنني أحاول أن أكون قوياً، لكن النحاس أثقل من أن تتحمله قوتي، أما الأحمال الباقية فهي سهلة.

وصلنا إلى (زبالة) وهو آخر مورد في حدود العراق قرية كبيرة أقمنا فيها يوماً يقول عنها ياقوت [1] قرية صغيرة بطريق الحاج، بها أسواق وفيها حصن وجامع و يوم زبالة من أيام العرب وقال ابن الكلبي: سميت زبالة

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٣.

بنت مصر امرأة من العماليق نزلتها. قال بعض الأعراب:

ألا هل إلى نجد وماء بقاعها
سبيل وأرواح بها عطرات

وهل لي إلى تلك المنازل عودة
على مثل تلك الحال قبل مماتي

فأشرب من ماء الزلال وأرتوي
وأرعى مع الغزلان في الفلوات

وفي الصباح الباكر تحركنا بعد عناء شديد تحملته، وقبل الظهر كنا أمام أحد بيوت الأعراب الكبيرة، وإذا هو بيت شيخ قبيلة من شمر أكرم وفادتنا وأقمنا ليلتنا وفي الصباح الباكر نهضت مجموعة من الشباب وساعدونا على التحميل ووصف الطريق للوالد إلى المورد التالي وهو (الشقوق) والمفروض أن نصل إليه بعد ثلاث مراحل.

وقد حدث مالم يكن في الحسبان بعد أن قطعنا مرحلة وبدأنا في المرحلة الثانية، هبت عاصفة اضطرتنا أن نقيم في جوانب أحد الجبال لنتقي العاصفة التي أضاعت معالم الطريق وفقنا معها طرق الإبل الواردة إلى المورد وسلكنا طريقاً عكسياً واستمررنا على مسيرنا مرحلة أخرى بعد يومين من تركنا للشيخ الشمري، وزالت العاصفة، واتضح للوالد أننا قد ضللنا الطريق في أحد المرتفعات الرملية، فحطينا الرحال، فالإبل لم تشرب إلا من مورد زبالة الي بعدنا عنها الآن بأربع مراحل القيض قارص.

رحت في نوم عميق، وتمنيت أن نبقى في هذا المكان فلقد تعبت من حمل الأحمال الثقيلة ولم يعد بي قوة أستطيع بها تحمل هذا العبء الكبير الذي زودنا به سليمان الخطاف سامحه الله، فلقد كان الوالد يعاتبني كل

صبـاح أو كلما وقعت فردة من الأحمال ولم أعد أهتم بنظرات الوالد ــ رحمه الله ــ إلى فـأظـن أنـه هو الآخر يقول في قرارة نفسه مالنا ومال النحاس، لكنه لايستطيع.

هـذا اليوم لم نتحرك من مكاننا مع الفجر وإنما تركت الإبل ترعى وهي مقـيـدة وبـدأ الـوالـد يـنـظـر فـي المـكبر لعله يجد علامة تدلنا على الطريق الـصحيـح إلى المورد، لكنه لم يجد أحداً ولا علامات من علامات الطريق فـأحـضـرنـا الإبـل وبـدأت معركة التحميل وانتهت هذه المرة على خير، ربما لأنـنـي استرددت ــ بسبب النوم ــ قوتي، أو أن لي رغبة في التحرك إلى حيث لاندري، قطعنا مسافة تقدر بمرحلة ولم نتوقف كالعادة (للمضحى).

وبـيـنما الـوالـد يجول بنظره يميناً ويساراً رأى مجموعة من الإبل على أحد الـكـثـبـان واتجهنا إليها ولم نصل إلى مكانها إلا قبيل غروب الشمس أنخنا الإبـل وأنـزلـنـا الأحمال وجاء إلينا الراعي، فسألناه عن المياه قال المورد يبعد مـرحـلـة وأنتم تـأخـذون طـريـقـاً عكسياً فبدلاً من أن نسلك طريق (الورد) سـلـكـنـا طـريـق (الـصدر) هكذا عرفنا من كلام الراعي، فسأله الوالد أن يـعـطينا بعض الماء، قال إني لاأحمل سوى القليل أعطانا منه (نصف قربة) وأعـطـانـا قـلـيـلاً مـن اللبن، وحـتـى نـتـعجل بالسير إلى المورد ساعدنا على التحميل وواصلنا رحلتنا.

تـوقـفـنـا في منتصف الليل، ووجدت الوالد يدعوني إلى الاقتراب منه، أحـسـسـت أنـه سـوف يعاتبني على مايحدث مني أثناء تحميل البضائع على ظـهـور الإبـل، لـكـنـنـي وجـدتـه رقـيـقـاً قال بصوت هادىء (ياولدي أنت تـعـبـت) وأنـا أشكو من (ملخ) في كتفي، أحضرت بعض الدهون وجلست أمـرخ لـه (المـلـخ) وهكذا هانت علي مصيبتي. وفي الصباح الباكر تحركنا، فالمورد لايبعد عنا سوى ساعة وأكثر وصلنا إليه مع المضحى، بئر يشبه المصنع وحـولهـا بعض بيوت الأعراب عرفت أن هذا المورد يقال له الشعلبية بعد أن

فـرغـنـا من السقيا والإبل لم تشرب منذ ستة أيام أضطررنا إلى الإقامة على المورد يومنا وليلتنا.

وفـي الـصـباح الباكر تحركنا من المورد وقد غيرنا اتجاه مسيرنا فبدلاً من أن نسير إلى الغرب اتجهنا إلى الجنوب قاصدين مورد لينة.

لينة

ولينة مورد معروف وقد تقدم ذكره أما الآن فإنه من أكبر المراكز الحكومية في هذه النواحي إذ يضم إمارة ومالية وجمارك وبعض الدوائر الرسمية التي كانت موجودة في ذلك الوقت وهي تتبع لإمارة حائل، وقد استغرقت المسافة إليها مرحلتين.

وصلناإلى لينة مساء يوم الاثنين ١٨ محرم ١٣٦٧هـ قبل غروب الشمس، واتجهنا إلى دائرة الجمرك واصطحبنا أحد الحراس من الجمارك إلى بيت من بيوت المدينة، نزلنا الأحمال بداخله والإبل في حوشه وأقمنا ليلتنا في هذا البيت وفي الصباح حضر إلينا مفتش من الجمرك وأخذ الأوراق التي معنا بأنواع البضائع وقدر عليها الجمارك مبلغاً من المال تم دفعه وكتب معنا رسالة بأعداد وأنواع البضائع التي معنا إلى أمير القصيم فتلك إجراءات رسمية لابد منها.

أقمنا اليوم الثاني في لينة وأرسلنا برقية (تلغراف) إلى أهلنا بوصولنا إلى لينة وأننا سنقطع المسافة إلى بريدة في حوالي ثلاثة أيام، وبعد صلاة الظهر والعصر قصراً بدأنا تحميل البضائع ولكن هذه المرة كان معنا أحد الخويا يقصد مرافقتنا إلى القصيم، وحمدت الله أن جاء من يساعدني ويخفف عني هذا العبء الذي حملته أكثر من خمسة عشر يوماً.

تحركت القافلة مع آذان العصر في لينة متوجهين إلى القصيم، نحث السير فلقد طال غيابنا والوالد رحمه الله كان متلهفاً على رؤية والدته، فقد صحا من نومه ونحن بالقرب من أثال وهو مذعور يقول لي: رأيت حلماً مزعجاً اللهم اجعله خيراً.

وصلنا إلى بريدة بعد غيبة مايزيد على ثلاثة أعوام مساء السبت ٢٢ محرم ١٣٦٧هـ عندما حطت الإبل أمام بيتنا بجوار مسجد الصائغ وجيراننا المرحوم عبد الله الخليفة ــ وجدي لوالدتي عبد الرحمن المرشود، محمد العويسي، سليمان الحامد وهذا البيت قد أجرناه من آل هويمل.

لقد وجدنا جدتي قد انتقلت إلى رحمة الله مساء أمس، أي قبل حضورنا بأربع وعشرين ساعة، وقد أصيب الوالد رحمه الله بنوبة إسهال شديدة كادت أن تؤدي بحياته وسهرنا ليلتنا وقد اجتمع الأقارب والأصدقاء، حول الوالد نحاول إسعافه بالعلاج بدلاً من تقبل التعازي في وفاة المرحومة الجدة.

كنا في مجلس المرحوم عبد الله الخليفة بعد العشاء حينما بدأ الوالد يقص على الموجودين قصة ذلك العراف المغربي الذي قابلنا بالقدس في أول عام سافرنا به في هذه الرحلة، والحلم المزعج الذي رآه في أثال وهو يردد كذب المنجمون ولو صدقوا.

الرحلة الثانية

في يوم الخميس الثامن من شهر ربيع الثاني عام ١٣٦٧هـ/فبراير١٩٤٨م تقرر سفرنا برحلة ثانية إلى الأردن وفلسطين، وكان الوالد قد اشترى رعيتين من الإبل في هذه السنة التي يعرفها العقيلات (بسنة ابن سليمان) وهو الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية آنذاك كانت الحكومة السعودية، قد اشترت عدداً كبيراً من الإبل ووضعتها في (حمى) مكان اسمه الصفاقات شرقي القصيم وباعت الحكومة على التجار المواشي.

كانت رحلتنا هذه المرة تتكون من الوالد ومحمد البراهيم الجربوع وأنا معهما ومعنا بعض الرعيان والملاحيق والخويا. ووصلنا إلى عمان في نهاية شهر ربيع الثاني، وكانت الأسواق قد كسدت ولم يعد من المستطاع السفر.

وأحداث فلسطين الدامية على مسمع منا ومرأى، باع الوالد رعية في عمان وبقيت معنا رعية نزلنا بها إلى الغور في شرقي الأردن للمشتى، كان شتاء قارساً وأفواج المهاجرين من عرب فلسطين تتوافد على الأردن مما اضطره إلى وضع معسكرات للفلسطينيين حول مزرعة الملك عبد الله في الغور.

ثم بدأت الجيوش العربية تصل إلى الأردن: جيش العراق كان يعسكر على مقربة من خيامنا والفدائيون يحاولون الذود عن أوطانهم وفي ليلة ساكنة وقع اعتداء من الصهيونيين على مخيم اللاجئين بالقرب منا، ضرب المدافع والصراخ من حولنا، والشعب الفلسطيني يتوافد على الأردن.

أركبني الوالد رحمه الله بإحدى السيارات المتجهة إلى عمان، ومعي

كتاب للشيخ عبد الله السويل وهو يومئذ وكيل تموين المتطوعين السعودين القادمين إلى أرض فلسطين في مدينة الجوف ركبت إحدى السيارات إلى سكاكا، وهناك ركبت مع السيارات التي تنقل المواد التموينية (الغذائية) من الرياض إلى الجوف.

وصلنا إلى الرياض بعد ثلاثة أيام مروراً بالحفر، ثم ركبت إحدى السيارات، إلى بريدة وكانت وصية الوالد ــ رحمه الله ــ لي أن أبحث عن عمل وكفى ماعنيت خلال هذه الرحلات.

وعملت في بريد بريدة بتاريخ ١٣٦٨/٩/١هـ براتب شهري قدره ٦٥ ريالاً سعودياً كنا نقبض المرتب بعد شهرين أو ثلاثة وحينما تتوفر للحكومة مايسدد المرتبات.

وبهذا انتهى عهدي بهذه الرحلات.

* * *

وبعد عزيزي القاريء الكريم، فهذه قصة (رحلتي مع العقيلات) راجياً أن يكون فيها عبرة للشباب وفائدة تضاف إلى أدب الرحلات.

أسوقها إلى هذا الجيل من الشباب الذي توفرت له أسباب الحياة الكريمة، ومع ذلك فهو متعجل متلهف على مصيره يبحث عن النجاح السريع دون عناء أو تعب.

لقد مشينا إلى الحياة على أرجلنا ثم ركبنا الجمل تارة والحصان تارة أخرى، وركبنا السيارة والطائرة أخيراً، ومن يدري فربما تكون هناك وسيلة أخرى يركبها أبناء هذا الجيل .

وبعد عزيزي القارىء الكريم وبعد أنفرغت من تنقيح وتصحيح

الأخطاء سواء المطبعية أو الأملائية. أرجو المعذرة فقد حان الوداع ولازال صهيل الجواد مرزوق يطن في أذني كأنني أسمعه يعاتبني بصهيله أو يذكرني باشياء قد نسيتها مع مرور الأيام وعذراً فقد حان الفراق وأرجو أن لا يكون فراق بيني وبين القاريء بل إلى لقاءٍ متجدد بإذن الله.

إبراهيم المســلم

قائمة المراجع والمصادر

١ ـــ دائرة المعارف الإسلامية (تأليف مجموعة من المستشرقين، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، مطابع الشعب بالقاهرة).

٢ ـــ معجم البلدان/لياقوت الحموي.

٣ ـــ تحفة النظار في غرائب الأمصار.

٤ ـــ مراصد الاطلاع.

٥ ـــ كتاب العقيلات/للمؤلف.



إدارة الثقافة

هاتف : ٤٧٧٩٠٥٩

ص.ب ٢٦٥٩-الرياض

FARAZDAK

مطابع الفرزدق التجارية

تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

الرياض


Bibliotheca Alexandrina
0435686